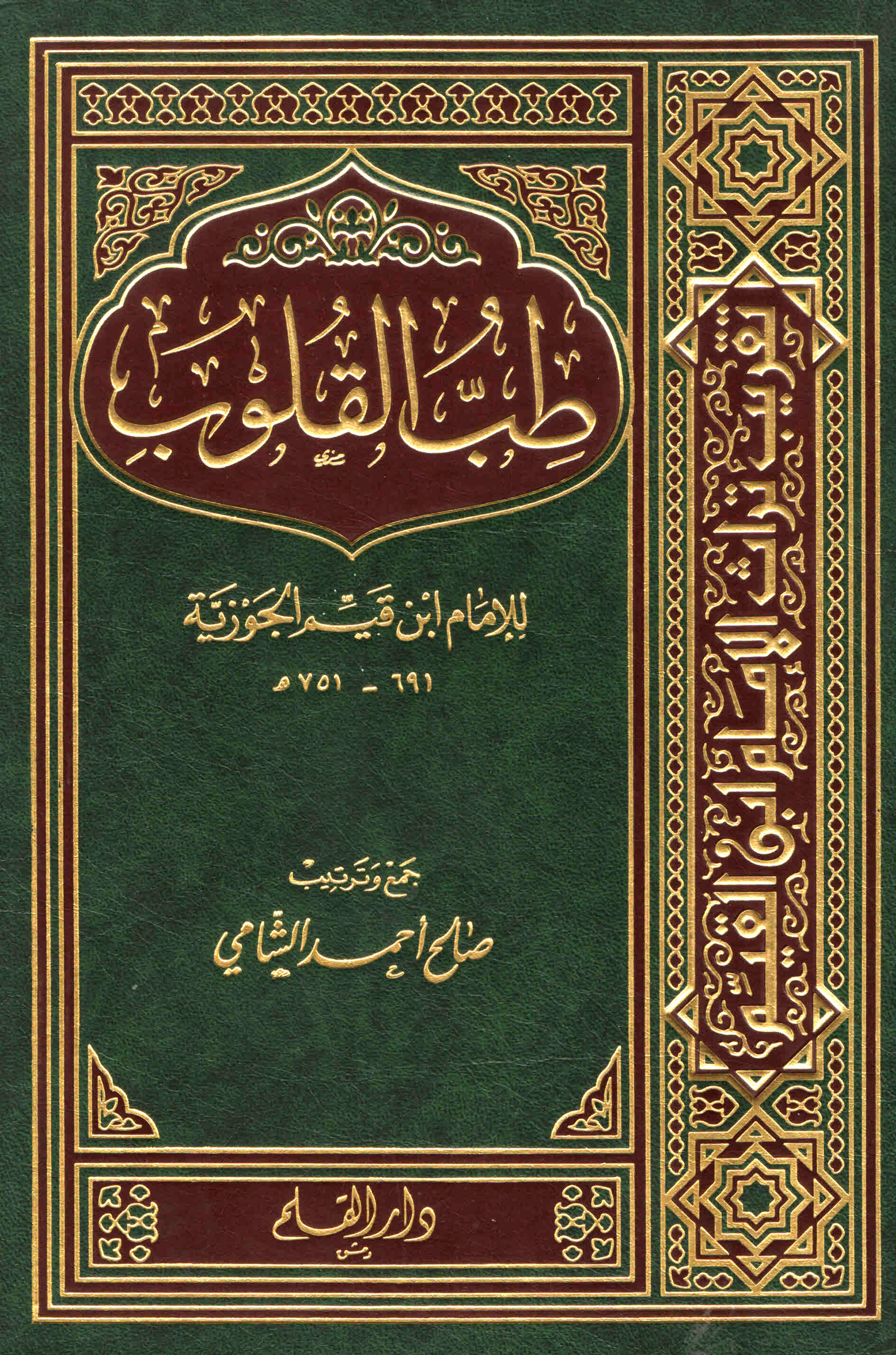


طب القلوب
للإمام ابن قيم الجوزية
٦٩١ - ٧٥١ هـ
جمع وترتيب
صالح أحمد الشامي
دار القلم
دمشق

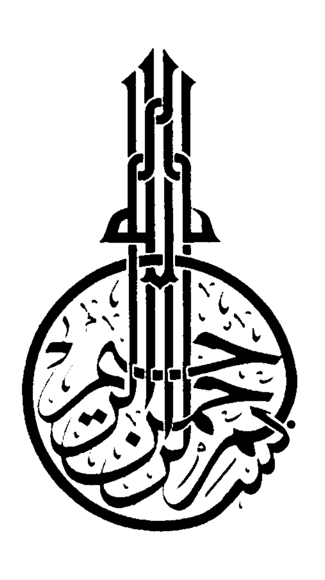

طب القلوب

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١



مُقَدِّمَةُ الإعداد

الحمد لله رب العالمين، حمداً طيباً مباركاً فيه، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإننا نعيش في هذه الأيام زمناً تقدم فيه العلم المادي تقدماً كبيراً، وأنتج للإنسان من وسائل التمدن والرفاهية الشيء الكثير، وما زال تسارع هذا التقدم مستمراً، ففي كل يوم شيء جديد.

ونتج عن هذا التسارع تسارع آخر، كان على الإنسان أن يقوم به لتحصيل أدوات العصر والاستفادة منها، ولكن أنى له هذا، وظهور الجديد مستمر لا يتوقف.

تسارع في الانتاج يتبعه تسارع في الاستهلاك.

ووصل الإنسان - تبعاً لذلك - إلى حالة اللهاث وراء الجديد، فالمصنِّع يلهث وراء الجديد، والمستهلك يلهث وراء الجديد.

والأمر الغريب أن كلا الطرفين غير قادر على التوقف ليلتقط أنفاسه.

وصاحَبَ هذا التقدم ارتفاع في عدد المرضى، وتنوّع في أمراضهم، وظهور أمراض لم تكن في بني الإنسان من قبل، مما يدل على أنها مفرز طبيعي لهذا التقدم المدني، ففي كل آونة نسمع عن اكتشاف مرض جديد...

وتسارع المخابر ودوائر الصحة إلى البحث عن الدواء الجديد الذي

يعالج المرض الجديد، مما جعل هذه الدوائر في لهاث من نوع آخر.

وتزايدت أمراض القلب، وتنوعت، شأنها شأن غيرها، وارتفعت نسبة المصابين بها حتى وصلت إلى أرقام مخيفة.

تلك هي حال الإنسان اليوم.

وتركيزنا على أمراض القلب، لأن القلب هو مركز الإنسان، وهو المضغة التي إذا صلحت صلح بها الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، فتأثيرها يصل إلى كل أجزاء البدن.

وتظل أمراض الأعضاء الأخرى موضعية، في إطار العضو المصاب.

وكَثُرَ أطباء القلب والاستشاريون والجراحون... وكثرت العقاقير والأدوية... وأجريت العمليات الجراحية له... مما خفف كثيراً من الآلام.

تلك هي حال القلب في هذا الزمان...

على أن للإنسان قلباً آخر غير منظور، لا يقل مكانة وشأناً عن عضلة القلب التي سبق الحديث عنها. وهو القلب الذي خاطبه القرآن وتحدث عنه في كثير من آياته.

وإذا كان تلف القلب الأول يؤدي إلى الموت، وبالتالي إلى فقدان الحياة الدنيا... فإن تلف القلب الآخر يؤدي إلى تلف الإنسان كلياً، وفقدان الدنيا والآخرة، وكان مثله كالذي تحدث القرآن عنه ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

ومن هنا تأتي أهمية الحديث عن القلب الآخر غير المنظور.

والمعضلة الكبرى في هذا القلب أن صاحبه لا يشعر بالمرض، إذ ليست له أعراض تظهر على الجسم، كما هو الحال في القلب الأول.

ولذا قد يزمن المرض ولا يدري به صاحبه .

ومن هنا كان على العلماء أن يقوموا بدورهم في نشر الوعي الصحي ، وتثقيف الناس في هذا الميدان حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم ولا يؤخذوا على غرة . . . وقد فعل علماؤنا ذلك .

وإذا كان أطباء هذا النوع من أمراض القلوب في زمننا قلة ، فإن عيادات قديمة ما زالت مفتوحة أبوابها ، تقدِّم الوصفات والعلاج لزوارها ، وتقوم بفحص عام لمن أراد ذلك ، وبغير مقابل ، ابتغاء وجه الله تعالى ، كما تقدم له نشرات التوعية . . . حتى يهتم بنفسه .

وأذكر على سبيل المثال بعض هذه العيادات .

فهناك عيادة الحسن البصري ، وعيادة الحارث المحاسبي ، وعيادة الجنيد ، وعيادة الغزالي . . . وغيرهم كثير رحمهم الله وأجزل ثوابهم .

وابن القيم ـ رحمه الله ـ واحد من أعلام هذا الميدان المشهورين ، المشهود لهم بالخبرة والدراية والمعرفة ، فكان من المستحسن أن نقف على أبوابه بغية الاستفادة من علمه وخبرته .

وهو ما دفعني إلى العناية بهذا الموضوع وإعداد هذا الكتاب راجياً من الله تعالى أن يجعل أعمالي خالصة له ، إنه نعم المسؤول ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

٦ شوال سنة ١٤٢١هـ

١ / ١ / ٢٠٠١م

صالح أحمد الشامي

هذا الكتاب

عندما نرجع إلى ترجمة الإمام ابن القيم، نجد في قائمة كتبه التي ألفها كتاباً بعنوان (طب القلوب).

وأكثر الذين كتبوا في ترجمته ذكروا هذا الكتاب[1]، ولكنه حتى الآن لم يعثر على مخطوطات له. وهناك أوراق قليلة مصورة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عن نسخة في مكتبة برلين الغربية، وهي عبارة عن مقتطفات متفرقة من كتاب (زاد المعاد) وليس تأليفاً مستقلاً، وقد وضعت هذه الأوراق تحت عنوان (طب القلوب)[2].

وإذ لم يتم العثور على مخطوطة لهذا الكتاب حتى الآن، فإن ابن القيم أشبع هذا الموضوع بحثاً في كتبه المتعددة، التي أستطيع أن أذكر منها:

- مدارج السالكين.
- طريق الهجرتين.
- الداء والدواء (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي).
- إغاثة اللهفان.
- الفوائد. . . وغيرها.

---

(١) انظر على سبيل المثال (التقريب لفقه ابن قيم الجوزية) للدكتور بكر أبو زيد: ١/ ٢٢١.

(٢) هذا ما جاء في كتاب (رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه)، الذي حققه الشيخ عبد الله بن محمد المديفر، ص٧٦.

فإنـه تحدث فيها عن أمـراض القلوب وعلاجها، وأدوائها، سـواء أكانت ناشئة عن الشبهات أم الشهوات.

وجمع مـادة هذا الموضـوع، ووضعها بين الأيـدي أمر مفيـد، يوفر على القارئ الجهد والوقت.

ولما عـزمت على هـذا الأمر في إطار مشروع تقريب تـراث الإمام ابن القيم... وجدت بعد البحـث: أن كتاب (إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان) يحتوي في القسم الأول منه، على ما يصلح أن يكون العمود الفقري في جسم هذا البحث.

ووجدت في كتبـه الأخرى، ما يمكن أن يسـاعد على اسـتكمال بناء هذا الموضوع.

وعندما توفرت مادة الموضوع، انعقد العزم على الشروع فيه، ويسّر الله سبحانه وتعالى الأسباب... وكان هذا الكتاب.

* * *

عملي في الكتاب

قلت: إن كتاب (إغاثة اللهفان) يتضمن في القسم الأول منه ما يعد الأساس والعمود الفقري في بناء الموضوع، ولذا يحسن أن نتوقف قليلاً، للحديث عن هذا الكتاب.

قسم المؤلف كتابه (إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان) إلى ثلاثة عشر باباً، وجعل الباب (الثالث عشر) للحديث عن مصايد الشيطان، ويستأثر هذا الباب ـ وهو موضوع الكتاب ـ بثلاثة أرباع الكتاب، الذي يقع في مجلدين.

وأما بقية الأبواب، فموضوعها جميعاً هو: طب القلوب، وتحتل من مساحة الكتاب الربع الأول منه، وهي في مجموعها تعد مقدمة وتمهيداً للكتاب، حيث يتحدث المؤلف فيها عن الميدان الذي يحوم حوله الشيطان، وهو القلب.

ولو أفرد هذا القسم من الكتاب ـ بطباعته مستقلاً ـ تحت عنوان (طب القلوب) لكان جديراً بأن يكون وافياً بالغرض. تماماً كما حدث ذلك في كتاب (الطب النبوي) الذي هو في الأصل جزء من كتاب (زاد المعاد).

ولعل السبب في عدم حصول ذلك هو أن عنوان الكتاب (إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان) لا يوحي بوجود هذا البحث فيه، ولا يستشف منه ذلك، وهكذا غابت مادة (القلب ومايتعلق به) تحت وهج ذلك العنوان، وساعد على غيابها ما عرف به المؤلف من استطراداته الطويلة، التي تزيد أحياناً على مائة صفحة، كما هو الشأن في أول الجزء الثاني من هذا الكتاب، فربما ظن القارئ أن هذا القسم كذلك.

وقد جاء ترتيب هذه الأبواب، حسب وضع المؤلف كالتالي:

الباب الأول: في انقسام القلوب إلى صحيح وسقيم وميت.

الباب الثاني: في ذكر حقيقة مرض القلب.

الباب الثالث: في انقسام أدوية أمراض القلب إلى طبيعية وشرعية.

الباب الرابع: في أن حياة القلب وإشراقه مادة كل خير فيه، وموته وظلمته مادة كل شر فيه.

الباب الخامس: في أن حياة القلب وصحته لا تحصل إلا بأن يكون مدركاً للحق مريداً له مؤثراً له على غيره.

الباب السادس: في أنه لاسعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح إلا بأن يكون إلـٰهه وفاطره وحده هو معبوده وغاية مطلوبه، وأحب إليه من كل ما سواه.

الباب السابع: في أن القرآن متضمن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه.

الباب الثامن: في زكاة القلب.

الباب التاسع: في طهارة القلب من أدرانه وأنجاسه.

الباب العاشر: في علامات مرض القلب وصحته.

الباب الحادي عشر: في علاج مرض القلب من استيلاء النفس عليه.

الباب الثاني عشر: في علاج مرض القلب بالشيطان.

أما عملي في الكتاب:

فيمكن إجماله في الأمور الآتية:

١ ـ ترتيب مادة الموضوع:

سبق قبل هذه الفقرة ذكر ترتيب الأبواب التي تناول فيها المؤلف عرض الموضوع.

والملاحظ أن هذا الترتيب لم يكن مقصوداً، بل جاء بشكل تلقائي، يدلنا على ذلك، ما جاء في الباب الثامن من الحديث عن زكاة القلب، وبعده في الباب التاسع الحديث عن طهارة القلب، ثم يقرر أن الزكاة إنما تكون بعد الطهارة، فلو كان الترتيب مطلوباً لقدم باب الطهارة على باب الزكاة.

وعندما يكون الغرض إخراج هذا الموضوع في كتاب مستقل، فلا بد من وضع هيكل للبحث تقرر فيه عناصر الموضوع. . . بحسب أولوياتها. وهذا ما تم إنجازه. ويحسن بي أن أشير إلى بعض التعديلات التي طرأت على ترتيب المؤلف.

- جاء تقسيم القلوب إلى صحيح وسقيم وميت في الباب الأول، وجاء الحديث عن علامات مرض القلب وصحته في الباب العاشر. فكان المناسب أن يكون في الباب الثاني.

- وجاء الحديث عن أدوية القلب الطبيعية والشرعية في الباب الثالث، بينما جاء الحديث عن أن القرآن متضمن لجميع أدوية القلب في الباب السابع، وحق هذين البابين أن يكونا متجاورين.

- وجاء الحديث عن سعادة القلب في الباب السادس، وحق هذا الموضوع أن يكون الباب الأخير وبه يختم الكتاب.

ومن جانب آخر جاءت بعض الموضوعات في أكثر من باب، فكان من المستحسن جمعها في باب واحد، فالحديث عن القلب الحي جاء في بابين، والحديث عن الأدوية جاء في بابين. . .

وفي المقابل جمع المؤلف في الباب الأول موضوعين، فكان من

المستحسن وضع الثاني منهما في المكان المناسب. فكان الباب السادس محلاً له[1].

٢ ـ استكمال مادة الموضوع من الكتب الأخرى للمؤلف:

تعرض المؤلف إلى الحديث عن هذا الموضوع في كثير من كتبه الأخرى، وبعد استعراض ما كتبه في ذلك تمكنت من الاستفادة من الكتب التالية: (مدارج السالكين)، (مفتاح دار السعادة)، (بدائع الفوائد)، (الفوائد)، (الجواب الكافي). وتم إضافة الفصول والفقرات التالية:

ـ الفصل الثاني في الباب الثاني.

ـ الفصل الثاني في الباب الخامس.

ـ الفصل الثاني في الباب السادس.

ـ الفقرة الأولى في الباب الأول.

ـ مقدمة الفصل الأول من الباب الخامس.

ـ وفقرات أخرى...

وقد أشرت إلى مرجع كل فصل أو فقرة أضيفت إلى البحث.

٣ ـ الاستطرادات:

عرف ابن القيم ـ رحمه الله ـ بأسلوبه الجميل، مما أتاح له أن يأخذ بيد القارئ حيثما أراد، كما عرف باستطراداته التناسبية، التي تطول تارة، وتقصر أخرى، الأمر الذي ربما أضاع على القارئ ترابط الموضوع في بعض الأحيان.

---

(١) وبعد هذه التعديلات أصبحت الأبواب حسب ترتيبها بالشكل التالي: [١، ١٠، ٢، ١١، ١٢، (٤+٥)، (٣+٧)، ٩، ٨، ٦].

وقد جعلت هـذه الاستطرادات[1] في الحاشـية إذا كانـت ضمن البحث، وأبقيتها في مكانها إذا كانت في آخر الفصل. مع الإشارة إلى أنها استطراد. وبهذا نوفر الوقت على القارئ، ونبقي على الفائدة المرجوة من الاستطراد.

٤ ـ ما يتعلق بالشكل:

تم تقسيم الفصول إلى فقرات، ووضعت لها عناوين فرعية، الأمـر الذي يساعد على فهم أسرع، وتصور كلي للموضوع محل البحث.

وأرجو أن أكون قد وفيت الموضوع بعض حقه.

* * *

---

(١) المقصود الاستطرادات الواردة في المادة المأخوذة من كتاب (إغاثة اللهفان).

بَيْنَ يَدَيِ الكِتَاب

يحسن بي وأنا بين يدي هذا الموضوع المهم، الذي تناوله المؤلف وتحدث عنه في أكثر من كتاب، أن أضع بين يدي القارئ الكريم هيكل البحث وطريقة ترتيبه، الأمر الذي يساعد على تصور كلي للموضوع، فأقول:

تحدث الباب الأول عن مكانة القلب من الإنسان كتمهيد عام، ثم قسم القلوب من حيث الصحة والمرض إلى: صحيح وسقيم وميت وبين لنا صفات كل منها.

وكان الباب الثاني لبيان علامات كل من الصحة والمرض، وبيان المفسدات التي تسبب الأمراض.

وبين في الباب الثالث حقيقة مرض القلب. وأن القلب كالجسد في أمراضه ومضاداتها.

وهكذا كانت الأبواب الثلاثة الأولى لتعريف القارئ عن المفهوم الشامل لأمر القلب من حيث الصحة والمرض والأسباب المؤدية إلى ذلك. مما يساعد على تجنب أسباب المرض، والتعرف على وجوده عند ظهور علاماته.

والخطر مسلط على القلب من ثلاث جبهات. هي: النفس، والشيطان، والفتن والذنوب.

فكان الباب الرابع لبيان الوقاية من استيلاء النفس على القلب.

وكان الباب الخامس لبيان الوقاية من تسلط الشيطان على القلب.

وكان الباب السادس لبيان خطر الفتن والمعاصي على القلب.

وبهذا يعرف الإنسان مكامن الخطر فيأخذ حذره منها ويكون على بينة من أمره.

وإذا كان الحديث عن القلوب وتطبيبها، فإن العلاج إنما يكون للقلب الذي فيه حياة، أما القلب الميت فلا ينفع فيه دواء، ولهذا كان الباب السابع عن القلب الحي. وعن بيان المؤشرات الدالة على ذلك.

وعند التأكد من وجود الحياة، فإن الوصفة ستكون بإذن الله نافعة، وهنا يأتي دور الحديث عن أدوية القلب وأنواعها، وهو ما جاء الحديث عنه في الباب الثامن.

إن التعرف على مكامن الخطر والعمل على اتخاذ أسباب الوقاية منها، والمسارعة إلى تناول العلاج عند ظهور المرض يساعد على بقاء القلب في حالة من الصحة والسلامة، ومما يساعد على استمرار هذه الصحة العمل على طهارة القلب من أدرانه ونجاساته، وهو ما تناوله الباب التاسع.

وبعد الطهارة ـ كما قال المؤلف ـ تكون التزكية، وهو موضوع الباب العاشر.

وعندما يستقر القلب في منزلة التزكية يصل إلى باب السعادة ولابد له حينئذ من التعرف على ما فيه سعادته وقد تكفل بذلك الباب الحادي عشر، وبه ختام الكتاب.

هذا تعريف مختصر وبيان لدواعي ترتيب الكتاب بهذه الطريقة، وأرجو أن أكون ممن اجتهد فأصاب.

* * *

تَرجَمَةُ ابْنِ القَيِّم

هو الإمام المحقق الحافظ شمس الدين، أو عبد الله، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي الدمشقي، المعروف بـ(ابن قيم الجوزية) نسبة إلى المدرسة التي أنشأها يوسف بن عبد الرحمن الجوزي، حيث كان أبوه قيماً عليها، واشتهر باسم (قيم الجوزية).

ولد سنة ٦٩١هـ في قرية (إزرع) من قرى حوران، ثم انتقل إلى دمشق وتتلمذ لعلمائها.

ولازم شيخ الإسلام ابن تيمية ملازمة تامة بعد عودته من مصر إلى دمشق سنة ٧١٢هـ إلى أن توفي الشيخ سنة ٧٢٨هـ.

وقد أتيح بهذه الملازمة استماع آراء الشيخ واجتهاداته، ولم يقتصر على إفادة العلم من شيخه، بل استفاد أيضاً تعلم طريقته في الاستدلال والمناقشة، وقد تأثر بأسلوبه في الكتابة وتحرير المسائل.

وأهم ما استفاد منه: دعوته إلى الاعتصام بكتاب الله عزَّ وجلّ، والسنّة الصحيحة، وفهمها على طريقة السلف الصالح.

وقد أصابه ما أصاب شيخه من أذى، فقد اعتقل معه في قلعة دمشق، ولم يفرج عنه إلا بعد وفاة الشيخ رحمه الله.

وقد استمر على محبة شيخه بعد وفاته، وتابع منهجه في سيرته وعلمه.

وقد كان ـ رحمه الله ـ صاحب عبادة وتهجد وطول صلاة، حتى قال ابن كثير في حقه: «لا أعرف في هذا العالم، في زماننا أكثر عبادة منه، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جداً، ويمد ركوعها وسجودها، ويلومه

كثير من أصحابه في بعض الأحيان، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك، رحمه الله تعالى».

وقد ذكر مترجموه من أمور عبادته وزهده وصدق لهجته الشيء الكثير.

أما مؤلفاته فكثيرة جداً، طبع منها أكثر من ثلاثين مؤلفاً.

توفي ـ رحمه الله ـ في شهر رجب سنة ٧٥١هـ وصُلي عليه بجامع دمشق الكبير.

ولاستكمال التصور عن شخصية ابن القيم، يحسن بنا أن نتوقف قليلاً، لنستمع إلى أقوال بعض العلماء فيه:

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني:

«كان جريء الجنان، واسع العلم، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف».

وقال العلامة ابن رجب الحنبلي:

«مارأيت أوسع منه علماً، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه، وهو ليس بمعصوم، ولكن لم أر في معناه مثله».

وقال القاضي برهان الدين الزرعي:

«ما تحت أديم السماء أوسع علماً منه» والمراد في عصره.

وقال الحافظ عماد الدين ابن كثير:

«كان ملازماً للاشتغال ليلاً نهاراً، كثير الصلاة والتلاوة، حسن الخلق، كثير التودد، لا يحسد ولا يحقد...».

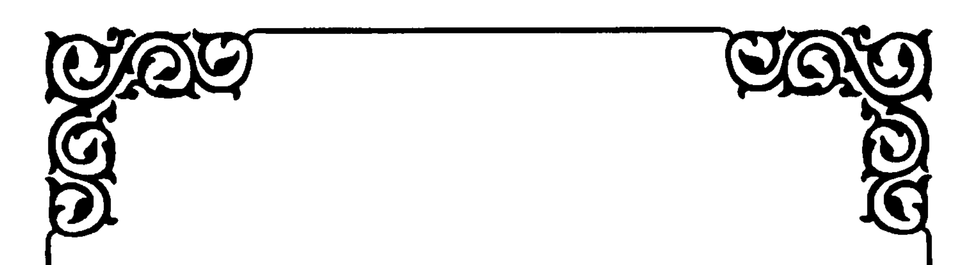
وقد مر في ترجمته بعض شهادته.

وقال ابن العماد الحنبلي:

«هو المجتهد المطلق، المفسر، النحوي، الأصولي، المتكلم... تفنن في علوم الإسلام، وكان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه، وبأصول الدين وإليه فيه المنتهى، وبالحديث ومعانيه، وفقهه ودقائق الاستنباط منه، لا يلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله، والعربية وله فيها اليد الطولى، وبعلم الكلام وغير ذلك، وعالماً بعلم السلوك...»[1].

* * *

(١) كتبت هذه الترجمة لمقدمتي لكتاب (مواعظ الإمام ابن القيم)، وهي ترجمة مختصرة، ورأيت أن أثبتها في مقدمة إعداد هذا الكتاب.



طب القلوب

للإمام ابن قيم الجوزية

٦٩١ - ٧٥١ هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةُ المُؤَلِّف

ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهيِّئ لنا من أمرنا رشداً، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

الحمد لله الذي ظهر لأوليائه بنعوت جلاله، وأنار قلوبهم بمشاهدة صفات كماله، وتعرّف إليهم بما أسداه إليهم من إنعامه وإفضاله، فعلموا أنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا شريك له في ذاته ولا صفاته ولا في أفعاله، بل هو كما وصف به نفسه وفوق ما يصفه به أحد من خلقه في إكثاره وإقلاله.

لا يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه على لسان من أكرمهم بإرساله، الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، ولا يحجب المخلوق عنه بستر سرباله. الحي القيوم، المنفرد بالبقاء، وكل مخلوق منته إلى زواله.

السميع الذي يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، فلا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين في سؤاله.

البصير الذي يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء حيث كان من سهله أو جباله. وألطف من ذلك رؤيته لتقلب قلب

عبده، ومشاهدته لاختلاف أحواله. فإن أقبل إليه تلقاه. وإنما إقبال العبد إليه من إقباله. وإن أعرض عنه لم يكله إلى عدوه، ولم يدعه في إهماله، بل يكون أرحم به من الوالدة بولدها، الرفيقة به في حمله ورضاعه وفصاله، فإن تاب فهو أفرح بتوبته من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدوّية[1] المهلكة إذا وجده وقد تهيأ لموته وانقطاع أوصاله.

وإن أصر على الإعراض، ولم يتعرض لأسباب الرحمة، بل أصر على العصيان في إدباره وإقباله، وصالح عدو الله وقاطع سيده، فقد استحق الهلاك، ولا يهلك على الله إلا الشقي الهالك لعِظَم رحمته وسعة إفضاله.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلٰهاً واحداً أحداً فرداً صمداً جلّ عن الأشباه والأمثال، وتقدس عن الأضداد والأنداد والشركاء والأشكال، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، ولا رادّ لحكمه ولا معقب لأمره: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله القائم له بحقه، وأمينه على وحيه وخيرته من خلقه، أرسله رحمة للعالمين، وإماماً للمتقين، وحسرة على الكافرين، وحجة على العالمين أجمعين، بعثه على حين فترة من الرسل، فهداهم به إلى أوضح الطرق وأقوم السبل. وافترض على العباد طاعته ومحبته، وتعظيمه وتوقيره والقيام بحقوقه، وسدّ إلى جنته جميع الطرق فلم يفتح لأحد إلا من طريقه، فشرح له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره ونهيه، وأقسم بحياته في كتابه المبين، وقرن اسمه باسمه، فلا يذكر إلا ذكر معه، كما في التشهد والخطب والتأذين.

---

(١) هي الصحراء.

فلم يزل ﷺ قائماً بأمر الله، لا يرده عنه رادّ، مشمراً في مرضاة الله، لايصده عن ذلك صاد، إلى أن أشرقت الدنيا برسالته ضياء وابتهاجاً، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وسارت دعوته مسير الشمس في الأقطار، وبلغ دينه القيّم ما بلغ الليل والنهار.

ثم استأثر الله به، لينجز له ما وعده به في كتابه المبين، بعد أن بلَّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد، وأقام الدين، وترك أمته على البيضاء الواضحة البينة للسالكين. وقال: ﴿ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

أما بعد: فإنَّ الله سبحانه وتعالى لم يخلق خلقه سدىً مهملاً، بل جعلهم مورداً للتكليف، ومحلاً للأمر والنهي، وألزمهم فهم ما أرشدهم إليه مجملاً ومفصلاً، وقسمهم إلى شقي وسعيد، وجعل لكل واحد من الفريقين منزلاً، وأعطاهم مواد العلم والعمل: من القلب والسمع والبصر والجوارح نعمة منه وتفضلاً.

فمن استعمل ذلك في طاعته، وسلك به طريق معرفته على ما أرشد إليه، ولم يبغ عنه عدولاً، فقد قام بشكر ما أوتيه من ذلك، وسلك به إلى مرضاة الله سبيلاً، ومن استعمله في إرادته وشهواته ولم يرع حق خالقه فيه؛ تحسر إذا سئل عن ذلك، ويحزن حزناً طويلاً. فإنه لا بد من الحساب على حق هذه الأعضاء لقوله سبحانه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود، الذي تصدر كلها عن أمره، ويستعملها فيما شاء، فكلها تحت عبوديته وقهره، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله،

قال ﷺ: (ألا وإنَّ في الجسد مُضْغَةً إذا صلَحتْ صَلَحَ الجسدُ كلّه)[1]، فهو ملكها، وهي المنفذة لما يأمرها به، القابلة لما يأتيها من هديته، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى يصدر عن قصده ونيته. وهو المسؤول عنها كلها، لأن كل راع مسؤول عن رعيته: كان الاهتمام بتصحيحه وتسديده أولى ما اعتمد عليه السالكون.

ولمَّا علم عدو الله إبليس أنَّ المدار على القلب والاعتماد عليه، أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات إليه، وزيَّن له من الأحوال والأعمال ما يصده به عن الطريق، وأمدّه من أسباب الغَيّ بما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق.

فلا نجاة من مصايده ومكايده إلا بدوام الاستعانة بالله، والتعرض لأسباب مرضاته. والتجاء القلب إليه في حركاته وسكناته، والتحقق بذلّ العبودية الذي هو أولى ما تلبّس به الإنسان، ليحصل له الدخول في ضمان ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]. فهذه الإضافة هي القاطعة بين العبد وبين الشياطين، وحصولها سبب تحقيق مقام العبودية لرب العالمين، وإشعار القلب إخلاص العمل ودوام اليقين، فإذا أشرب القلب العبودية والإخلاص صار عند الله سبحانه وتعالى من المقربين، وشمله استثناء ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠].

ولما منّ الله الكريم بلطفه بالاطلاع على ما أطلع عليه من أمراض القلوب وأدوائها، وما يعرض لها من وساوس الشياطين أعدائها، وما تثمرها تلك الوساوس من الأعمال. وما يكتسب القلب بعدها من الأحوال.

---

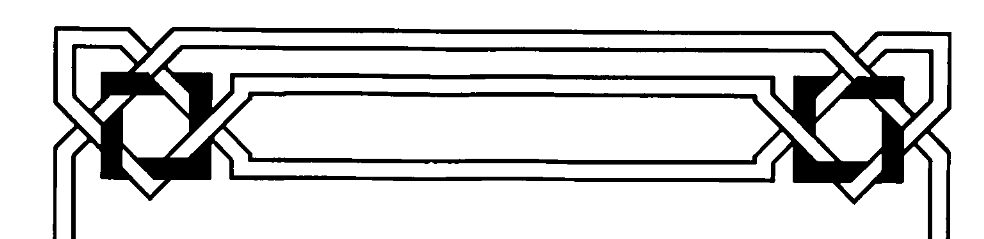
(١) متفق عليه (خ ٥٢، ٥٩٩).

فإن العمل السيئ مصدره عن فساد قصد القلب، ثم يعرض للقلب من فساد العمل قسوة، فيزداد مرضاً على مرضه حتى يموت، ويبقى لا حياة فيه ولا نور له.

وكل ذلك من انفعاله لوسوسة الشيطان، وركونه إلى عدوه الذي لا يفلح إلا من جاهره بالعصيان: أردتُ أن أقيد ذلك في هذا الكتاب، لأستذكر معترفاً فيه لله سبحانه بالفضل والنعمة؛ وينتفع به من نظر فيه داعياً لمؤلفه بالمغفرة والرحمة.

والله سبحانه تعالى يجعله خالصاً لوجهه الكريم، مؤمّناً من الكَرَّة الخاسرة، وينفع به مصنفه وكاتبه، والناظر فيه في الدنيا والآخرة، إنه سميع عليم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

* * *



البَاب الأَوَّل

القلوب من حيث الصحة والمرض

القلوب من حيث الصحة والمرض

مكانة القلب:

القلب هو الملك المشتغل لجميع آلات البدن، والمستخدم لها، فهو محفوف بها، محشود، مخدوم، مستقر في الوسط.

وهو أشرف أعضاء البدن، وبه قوام الحياة، وهو منبع الروح الحيواني والحرارة الغريزية.

وهو معدن العقل والعلم والحلم والشجاعة، والكرم والصبر، والاحتمال، والحب والإرادة والرضا والغضب، وسائر صفات الكمال.

فجميع الأعضاء الظاهرة والباطنة وقواها، إنما هي جند من أجناد القلب.

فإن العين طليعته ورائده الذي يكشف له المرئيات، فإن رأت شيئاً أدته إليه، ولشدة الارتباط الذي بينها وبينه، إذا استقر فيه شيء ظهر فيها، فهي مرآته المترجمة للناظر ما فيه.

كما أن اللسان ترجمانه المؤدي للسمع ما فيه.

ولهذا كثيراً ما يقرن سبحانه في كتابه بين هذه الثلاث، كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وكذلك يقرن بين القلب والبصر كقوله تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وكذلك الأذن هي رسوله المؤدي إليه.

وكذلك اللسان ترجمانه.

وبالجملة: فسائر الأعضاء خدمه وجنوده، وقال النبي ﷺ (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[1].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: القلب ملك، والأعضاء جنوده، فإن طاب الملك طابت جنوده، وإن خبث الملك خبثت جنوده[2].

ولما كان القلب يوصف بالحياة وضدها، انقسم بحسب ذلك إلى هذه الأحوال الثلاثة:

[الأول: القلب الصحيح]:

فالقلب الصحيح: هو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به، كما قال سبحانه تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

فالسليم هو السالم، وجاء على هذا المثال لأنه للصفات، كالطويل والقصير والظريف.

فالسليم القلب الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له، كالعليم والقدير، وأيضاً فإنه ضد المريض، والسقيم، والعليل.

وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم، والأمر الجامع لذلك:

---

(١) رواه البخاري (٥٢)؛ ومسلم (١٥٩٩).

(٢) جاء هذا الموضوع عن القلب في (مفتاح دار السعادة): ٢/ ١٦ الناشر، دار ابن عفان.

أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره.

فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله. فسلم من محبة غير الله معه، ومن خوفه ورجائه والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق.

وهذا هو حقيقة العبودية التي لاتصلح إلا لله سبحانه وتعالى وحده[1].

فالقلب السليم: هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله: إرادة ومحبة، وتوكلاً، وإنابةً، وإخباتاً، وخشية، ورجاء.

وخلص عمله لله، فإن أحب أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله.

ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسول الله ﷺ، فيعقد قلبه معه عقداً محكماً على الائتمام والاقتداء به وحده، دون كل أحد في الأقوال والأعمال من:

أقوال القلب. وهي: العقائد، وأقوال اللسان. وهي: الخبر عما في القلب.

---

(١) قال المؤلف في كتاب (مفتاح دار السعادة): ١/ ٢٠٠؛ ومتى كان القلب كذلك فهو:
- سليم من الشرك.
- سليم من البدع.
- سليم من الغي.
- سليم من الباطل.

وكل الأقوال التي قيلت في تفسيره، فذلك يتضمنها.

وأعمال القلب. وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها.

وأعمال الجوارح.

فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دِقِّه وجِلِّه، هو ما جاء به الرسول فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا بقول ولا عمل، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ ﴾ [الحجرات: ١].

أي لا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر.

قال بعض السلف: ما من فِعلة ـ وإن صغرت ـ إلا ينشر لها ديوانان: لِمَ؟ وكيف؟ أي: لما فعلت؟ وكيف فعلت؟.

فالأول: سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه: هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل، وغرض من أغراض الدنيا في محبة المدح من الناس أو خوف منهم، أو استجلاب محبوب عاجل، أو دفع مكروه عاجل، أو الباعث على الفعل القيام بحق العبودية، وطلب التقرب إلى الرب سبحانه. وابتغاء الوسيلة إليه.

ومحل هذا السؤال: أنه، هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك[1]، أم فعلته لحظك وهواك؟.

والثاني: سؤال عن متابعة الرسول في ذلك التعبد، أي هل كان ذلك العمل مما شرعتُه لك على لسان رسولي، أم كان عملاً لم أشرعه ولم أرضه؟.

فالأول سؤال عن الإخلاص.

والثاني عن المتابعة.

---

(١) المراد: هل فعلت هذا الفعل لمولاك.

فإن الله سبحانه وتعالى لا يقبل عملاً إلا بهما .

فطريق التخلص من السؤال الأول : بتجريد الإخلاص .

وطريق التخلص من السؤال الثاني : بتحقيق المتابعة ، وسلامة القلب من إرادة تعارض الإخلاص ، وهوى يعارض الاتباع .

فهذه حقيقة القلب الذي ضمنت له النجاة والسعادة .

[الثاني: القلب الميت]:

والقلب الثاني : ضد هذا، وهو القلب الميت[1] الذي لا حياة به ، فهو لا يعرف ربه ، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاذاته، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه ، رضي ربه أم سخط .

فهو متعبد لغير الله ، حباً، وخوفاً، ورضاً وسخطاً ، وتعظيماً، وذلاً . إن أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه ، وإن منع منع لهواه .

فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه .

---

(١) ليس المراد بالموت هنا معناه الاصطلاحي ، وإنما المراد به القلب الذي أعرض عن الخير ، وأوغل في الشر حتى وصل المتعامل معه إلى اليأس منه في إمكان تقبله للخير . ومع ذلك فالإسلام لم يطرح من حسابه هذه القلوب الميتة ، بل مطلوب دعوتها إلى الخير ، فربما وضع الله فيها الحياة . والمثال على ذلك : عندما هاجر المسلمون إلى الحبشة ، وقف عمر على أم عبد الله بنت أبي حثمة زوج عامر بن ربيعة ، وقد حزمت أمتعتها، فحزن لها عمر وقال: صحبتكم السلامة ، فلما أخبرت زوجها بقوله ـ وكان غائباً ـ قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت : نعم، قال: فإنه لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب. قال ذلك يائساً منه ، والمراد من ذكر القلب الميت في هذا الكتاب، هو التعريف بهذا النوع وصفاته ، حتى يسارع من كان قلبه كذلك إلى تداركه إذا رغب .

فالهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهل سايسه، والغفلة مركبه.

فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية معمور، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مغمور. ينادَى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد، فلا يستجيب للناصح، ويتبع كل شيطان مريد. الدنيا تسخطه وترضيه. والهوى يُصِمُّه عما سوى الباطل. فهو في الدنيا كما قيل في ليلى:

عدو لمن عادت، وسِلْم لأهلها ومن قَرَّبت ليلى أحبّ وأقربا

فمخالطة صاحب هذا القلب سَقَم. ومعاشرته سُمٌّ. ومجالسته هلاك.

[الثالث: القلب المريض]:

والقلب الثالث: قلب له حياة وبه علة. فله مادتان، تمده هذه مرة، وهذه أخرى. وهو لما غلب عليه منهما.

ففيه من محبة الله والإيمان به والإخلاص له، والتوكل عليه: ما هو مادة حياته.

وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها، والحسد والكبر والعجب، وحب العلو في الأرض بالرياسة: ما هو مادة هلاكه وعطبه.

وهو ممتحن من داعيين:

داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة.

وداع يدعوه إلى العاجلة.

وهو إنما يجيب أقربهما منه باباً، وأدناهما إليه جواراً.

● ● ●

فالقلب الأول، حي مخبت لين واعٍ.

والثاني: يابس ميت.

والثالث: مريض، فإما إلى السلامة أدنى، وإما إلى العطب أدنى.

[آية كريمة تجمع القلوب الثلاثة]:

وقد جمع الله سبحانه وتعالى بين هذه القلوب الثلاثة في قوله:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الحج: ٥٢ ـ ٥٤].

فجعل سبحانه وتعالى القلوب في هذه الآيات ثلاثة: قلبين مفتونين، وقلباً ناجياً.

فالمفتونان: القلب الذي فيه مرض، والقلب القاسي.

والناجي: القلب المؤمن المخبت إلى ربه، وهو المطمئن إليه الخاضع له، المستسلم المنقاد.

وذلك: أن القلب وغيره من الأعضاء يراد منه أن يكون صحيحاً سليماً لا آفة به، يتأتى منه ما هُيِّئَ له وخُلق لأجله.

وخروجه عن الاستقامة:

ـ إما ليبسه وقساوته. وعدم التأتي لما يراد منه، كاليد الشلاء، واللسان الأخرس، والأنف الأخشم، وذكر العِنين، والعين التي لا تبصر شيئاً.

ـ وإما بمرض وآفـة فيه تمنعه من كمال هذه الأفعال ووقـوعها على السداد .

فلذلك انقسمت القلوب إلى هذه الثلاثة .

فالقلب الصحيح السليم : ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه ، فهو صحيح الإدراك ، تام الانقياد والقبول له .

والقلب الميت القاسي : لا يقبله ولا ينقاد له .

والقلب المريض : إن غلب عليه مرضه التحق بالميت القاسي . وإن غلبت عليه صحته التحق بالسليم .

[القلب الصحيح لا يضره الشيطان]:

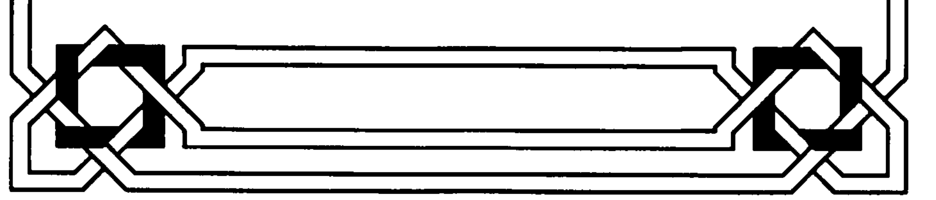
فما يلقيه الشيطان في الأسماع من الألفاظ ، وفي القلوب من الشبه والشكوك : فتنـة لهذين القلبين ، قوة للقلب الحي السليم . لأنه يردُّ ذلك ويكرهه ويبغضـه ، ويعلم أن الحق في خلافه ، فيُخبت للحق قلبه ويطمئن وينقاد ، ويعلم بطلان ما ألقاه الشيطان ، فيزداد إيماناً بالحق ومحبة له ، وكفراً بالباطل وكراهة له .

ولا يزال القلب المفتون في مِرْية من إلقاء الشيطان .

وأما القلب الصحيح السليم فلا يضره ما يلقيه الشيطان أبداً .

* * *

الباب الثاني
في
علامات مرض القلب وصحته



الفصل الأول
علامات مرض القلب وصحته

[تعريف مرض القلب]:

كل عضو من أعضاء البدن خُلق لفعلٍ خاص، به كماله في حصول ذلـك الفعل منه.

ومرضه: أن يتعذر عليه الفعل الذي خلق له، حتى لا يصدر منه، أو يصدر مع نوع من الاضطراب.

فمرض اليد: أن يتعذر عليها البطش.

ومرض العين: أن يتعذر عليها النظر والرؤية.

ومرض اللسان: أن يتعذر عليه النطق.

ومرض البدن: أن يتعذر عليه حركته الطبيعية أو يضعف عنها.

ومرض القلب: أن يتعذر عليه ما خلق له من المعرفة بالله ومحبته والشوق إلى لقائه، والإنابة إليه، وإيثار ذلك على كل شهوة.

فلو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه، فكأنه لم يعرف شيئاً، ولو نال كل حظ من حظوظ الدنيا ولَذّاتها وشـهواتها ولم يظفر بمحبـة الله، والشـوق إليه، والأنس به؛ فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرة عين، بل إذا كان القلب خالياً من ذلك عادت تلك الحظوظ واللذات عذاباً له ولا بد، فيصير معذباً بنفس ما كان منعماً به من جهتين:

ـ من جهة حسرة فَوْته، وأنه حيل بينه وبينه، مع شدة تعلق روحه به.

ـ ومن جهة فَوْت ما هو خير له وأنفع وأدوم، حيث لم يحصل له.

فالمحبوب الحاصل فات، والمحبوب الأعظم لم يظفر به.

وكل من عرف الله أحبه، وأخلص العبادة له ولا بد، ولم يؤثر عليه شيئاً من المحبوبات.

فمن آثر شيئاً من المحبوبات فقلبه مريض.

كما أن المعدة إذا اعتادت أكل الخبيث وآثرته على الطيب سقط عنها شهوة الطيِّب، وتعوّضت بمحبة غيره.

[الإحساس بمرض القلب]:

وقد يمرض القلب ويشتد مرضه، ولا يعرف به صاحبه، لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك:

أنه لا تؤلمه جراحات القبائح.

ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة.

فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه، وتألم بجهله بالحق بحسب حياته.

وما لجرحٍ بميّتٍ إيلامُ

[لا بد من الصبر على الدواء]:

وقد يشعر بمرضه، ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها؛ فهو يؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء، فإن دواءه في مخالفة الهوى، وذلك أصعب شيء على النفس، وليس لها أنفع منه.

وتارة يوطن نفسه على الصبر، ثم ينفسخ عزمه، ولا يستمرّ معه

لضعف علمه وبصيرته وصبره:

كمن دخل في طريق مخوف مفضٍ إلى غاية الأمن، وهو يعلم أنه إن صبر عليه انقضى الخوف وأعقبه الأمن، فهو محتاج إلى قوة صبر، وقوة يقين بما يصير إليه، ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق، ولم يتحمل مشقتها، ولا سيما إن عدم الرفيق واستوحش من الوحدة[1]، وجعل يقول: أين ذهب الناس؟ فلي أسوة بهم.

---

(١) استطرد هنا المؤلف رحمه الله بمناسبة حديثه عن قطع الطريق المخوف، ليتحدث عن مفهوم الجماعة، وأنها ما وافق الحق وإن قل العدد، فقال: فالبصير الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق، ولا من فقده إذا استشعر قلبه مرافقة الرفقة الأول، الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقاً؛ فتفرّد العبد في طريق طلبه دليل على صدق الطلب.

ولقد سئل إسحاق بن راهَويه عن مسألة فأجاب. فقيل له: إن أخاك أحمد بن حنبل يقول فيها بمثل قولك. فقال: ما ظننت أن أحداً يوافقني عليها.

ولم يستوحش بعد ظهور الصواب له من عدم الموافق؛ فإن الحق إذا لاح وتبين لم يحتج إلى شاهد يشهد به. والقلب يبصر الحق كما تبصر العين الشمس. فإذا رأى الشمس لم يحتج في عمله بها واعتقاده أنها طالعة إلى من يشهد بذلك ويوافقه عليه.

وما أحسن ما قال أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامَة في كتاب (الحوادث والبدع): حيث جاء بلزوم الجماعة، فالمراد به لزوم الحق واتّباعه، وإن كان المتمسك به قليلاً والمخالف له كثيراً، لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي ﷺ وأصحابه، ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم.

قال عمرو بن ميمون الأوْدِي: صحبت معاذاً باليمن، فما فارقته حتى واريته في التراب بالشام، ثم صحبت بعده أفقه الناس عبد الله بن مسعود، فسمعته يقول: عليكم بالجماعة، فإن يد الله على الجماعة.

ثم سمعته يوماً من الأيام وهو يقول: سيلي عليكم ولاة يؤخرون الصلاة عن مواقيتها، فصلوا الصلاة لميقاتها، فهي الفريضة، وصلوا معهم فإنها لكم نافلة. قال قلت: يا أصحاب محمد، ما أدري ما تحدثونا؟ قال: قلت تأمرني بالجماعة وتحضني عليها. ثم تقول: صل الصلاة وَحْدك، وهي الفريضة، وصل مع الجماعة، وهي نافلة؟

قال: يا عمرو بن ميمون، قد كنت أظنك من أفقه أهل هذه القرية، تدري ما الجماعة؟ قلت: لا. =

وهذه حال أكثر الخلق، وهي التي أهلكتهم.

[علامات أمراض القلب]:

والمقصود: أن من علامات أمراض القلوب:

عدولها عن الأغذية النافعة الموافقة لها إلى الأغذية الضارة.

وعدولها عن دوائها النافع إلى دائها الضار.

فهنا أربعة أمور:

غذاء نافع.

= قال: إن جمهور الجماعة: الذين فارقوا الجماعة. الجماعة ما وافق الحق، وإن كنت وحدك.

وفي طريق أخرى فضرب على فخذي وقال: ويحك، إن جمهور الناس فارقوا الجماعة. وإن الجماعة ما وافق طاعة الله عزَّ وجلّ.

قال نُعَيم بن حماد: يعني إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد، وإن كنت وحدك. فإنك أنت الجماعة حينئذ، ذكره البيهقي وغيره.

وقال أبو شامة عن مبارك عن الحسن البصري قال: السنة، والذي لا الله إلا هو، بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها رحمكم الله؛ فإن أهل السنة كانوا أقلَّ الناس فيما بقي: الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم، فكذلك إن شاء الله فكونوا.

وكان محمد بن أسلم الطُّوسي، الإمام المتفق على إمامته، مع رتبته؛ أتبع الناس للسنة في زمانه؛ حتى قال: ما بلغني سُنة عن رسول الله ﷺ إلا علمت بها، ولقد حرصت على أن أطوف بالبيت راكباً؛ فما مُكِّنتُ من ذلك.

فسُئل بعض أهل العلم في زمانه عن السَّواد الأعظم الذين جاء فيهم الحديث: «إذا اختلف الناس فعليكم بالسواد الأعظم» من السواد الأعظم؟ فقال: محمد بن أسلم الطوسي هو السواد الأعظم.

وصدق والله، فإن العصر إذا كان فيه عارف بالسنّة داع إليها فهو الحجة، وهو الإجماع، وهو السواد الأعظم، وهو سبيل المؤمنين التي من فارقها واتبع سواها ولاّه الله ما تولّى، وأصلاه جهنم، وساءت مصيراً.

ودواء شاف.

وغذاء ضار.

ودواء مهلك.

[علامات صحة القلب]:

والقلب الصحيح: يؤثر النافع الشافي على الضار المؤذي، والقلب المريض بضد ذلك.

وأنفع الأغذية غذاء الإيمان.

وأنفع الأدوية دواء القرآن.

وكل منهما فيه الغذاء والدواء.

ومن علامات صحته أيضاً: أن يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالآخرة، ويحل فيها، حتى يبقى كأنه من أهلها وأبنائها، وقد جاء هذه الدار غريباً يأخذ منها حاجته، ويعود إلى وطنه، كما قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمر: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعُدَّ نفسك من أهل القبور)[1].

فحيِّ على جنات عَدْنٍ فإنها ... منازلك الأولى وفيها المُخَيّمُ
ولكننا سَبْيِ العدو، فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونسلم؟

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن الدنيا قد ترحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة، ولكل منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤١٦) دون الفقرة الأخيرة، وهي عند الترمذي (٢٣٣٣) وغيره.

كلما صح القلب من مرضه ترحل إلى الآخرة وقرب منها، حتى يصير من أهلها، وكلما مرض القلب واعتل آثر الدنيا واستوطنها، حتى يصير من أهلها.

ومن علامات صحة القلب: أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله تعالى ويخبت إليه، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه، الذي لا حياة له، ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به، فبه يطمئن، وإليه يسكن، وإليه يأوي، وبه يفرح، وعليه يتوكل، وبه يثق، وإياه يرجو، وله يخاف.

فذكره قوته، وغذاؤه ومحبته، والشوق إليه حياته ونعيمه ولذته وسروره، والالتفات إلى غيره والتعلق بسواه داؤه، والرجوع إليه دواؤه.

فإذا حصل له ربه سكن إليه واطمأن به، وزال ذلك الاضطراب والقلق، وانسدت تلك الفاقة.

فإن في القلب فاقة لا يسدها شيء سوى الله أبداً.

وفيه شعث لا يلمه غير الإقبال عليه.

وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له، وعبادته وحده.

فهو دائماً يضرب على صاحبه حتى يسكن ويطمئن إلى إلـٰهه ومعبوده، فحينئذٍ يباشر روح الحياة، ويذوق طعمها، ويصير له حياة أخرى غير حياة الغافلين المعرضين عن هذا الأمر الذي له خُلِق الخلق، ولأجله خُلِقت الجنة والنار، وله أُرسلت الرسل ونزلت الكتب، ولو لم يكن جزاء إلا نفس وجوده لكفى به جزاء وكفى بفوته حسرة وعقوبة، كما قيل:

وَمَنْ صَدَّ عَنَّا حَظُّهُ الْبُعْدُ وَالْقِلَىٰ ... وَمَــنْ فُتُّــهُ يَكْفِيْــهِ أَنِّــي أَفُــوْتُــهُ

قال بعض العارفين: مساكين أهل الدنيا، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا

أطيب ما فيها؛ قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه، والتنعُّم بذكره وطاعته.

وقال آخر: إنه ليمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

وقال آخر: والله ما طابت الدنيا إلا بمحبته وطاعته، ولا الجنة إلا برؤيته ومشاهدته.

وقال أبو الحسين الوراق: حياة القلب في ذكر الحي الذي لا يموت، والعيش الهني: الحياة مع الله تعالى لا غير.

ولهذا كان الفوت عند العارفين بالله أشد عليهم من الموت؛ لأن الفوت انقطاع عن الحق، والموت انقطاع عن الخلق، فكم بين الانقطاعين؟

وقال آخر: من قرت عينه بالله تعالى قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطع قلبه على الدنيا حسرات.

وقال يحيى بن معاذ: من سر بخدمة الله سرت الأشياء كلها بخدمته، ومن قرت عينه بالله قرت عيون كل أحد بالنظر إليه.

ومن علامات صحة القلب: أن لا يفتر عن ذكر ربه، ولا يسأم من خدمته، ولا يأنس بغيره؛ إلا بمن يدله عليه، ويذكرهُ به، ويذاكره بهذا الأمر.

ومن علامات صحته: أنه إذا فاته ورده وجد لفواته ألماً أعظم من تألم الحريص بفوات ماله وفقده.

ومن علامات صحته: أنه يشتاق إلى الخدمة، كما يشتاق الجائع إلى الطعام والشراب.

ومن علامات صحته: أنه إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همه وغمه

بالدنيا، واشتد عليه خروجه منها، ووجد فيها راحته ونعيمه، وقرت عينه وسرور قلبه.

ومن علامات صحته: أن يكون همه واحداً، وأن يكون في الله.

ومن علامات صحته: أن يكون أشح بوقته أن يذهب ضائعاً من أشد الناس شحاً بما له ومنعاً.

ومنها: أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل، فيحرص على الإخلاص فيه والنصيحة والمتابعة والإحسان، ويشهد مع ذلك مِنَّة الله فيه وتقصيره في حق الله.

فهذه ست مشاهد لا يشهدها إلا القلب الحي السليم[١].

خلاصة القول في القلب الصحيح:

وبالجملة فالقلب الصحيح: هو الذي هَمُّه كله في الله، وحبه كله له، وقصده له، وبدنه له، وأعماله له، ونومه له، ويقظته له، وحديثه والحديث عنه أشهَى إليه من كل حديث. وأفكاره تحوم على مراضيه ومحابِّه.

والخلوة به آثر عنده من الخلطة إلا حيث تكون الخلطة أحب إليه وأرضى له، قُرَّة عينه به، وطمأنينته وسكونه إليه، فهو كلما وجد من نفسه التفاتاً إلى غيره تلا عليها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧ـ٢٨].

فهو يردد عليها الخطاب بذلك ليسمعه من ربه يوم لقائه فينصبغ القلب بين يدي إلـٰهه ومعبوده الحق بصبغة العبودية، فتصير العبودية صفته، ذوقاً لا تكلفاً، فيأتي بها تودُّداً وتحبباً وتقرباً، كما يأتي المحب المتيم في محبة محبوبه بخدمته وقضاء أشغاله.

---

(١) ما ذكره المصنف أكثر من ذلك.

فكلما عرض له أمر من ربه أو نهي أحسَّ من قلبه ناطقاً ينطق: لبَّيْك وَسَعْدَيك إني سامع مطيع ممتثل، ولك علّي المِنَّة في ذلك، والحمد فيه عائد إليك.

وإذا أصابه قَدَر وجد من قلبه ناطقاً يقول: أنا عبدك ومسكينك وفقيرك، وأنا عبدك الفقير العاجز الضعيف المسكين، وأنت ربي العزيز الرحيم؛ لا صبر لي إن لن تصبرني، ولا قوة لي إن لم تحملني وتُقوِّني؛ لا ملجأ لي منك إلا إليك، ولا مستعان لي إلا بك، ولا انصراف لي عن بابك، ولا مذهب لي عنك.

فينطرح بمجموعه بين يديه، ويعتمد بكليته عليه، فإن أصابه بما يكره قال: رحمة أهْديتْ إليَّ، ودواء نافع من طبيب مشفق، وإن صرف عنه ما يحب قال: شَرّاً صرف عني.

وكَمْ رمتُ أمْراً خِرْتَ لي في انْصِرَافِه وَمـا زلـتَ بـي مِنِّـي أَبَـرَّ وَأَرْحَـمـا

فكل ما مَسَّه به من السَّرَّاء والضرَّاء اهتدى بها طريقاً إليه، وانفتح له منه باب يدخل منه عليه، كما قيل:

مـا مسَّنـي قَـدَر بكُـرْهٍ أو رضـىً إلا اهتـديـتُ بـه إليـك طـريقـاً
أمْضِ القضاء على الرضا مني به إنـي وجـدتـك فـي البـلاء رفيقـاً

فلله هاتيك القلوب وما انطوت عليه من الضمائر، وماذا أودعته من الكنوز والذخائر، ولله طيب أسرارها ولا سيما يوم تُبْلى السرائر.

سيبـدو لهـا طيـب ونـور وبهجـة وحسـن ثنـاء يـوم تبلـى السـرائـر

تالله، لقد رفع لها علم عظيم فشمرت إليه، واستبان لها صراط مستقيم فاستقامت عليه، ودعاها ما دون مطلوبها الأعلى فلم تستجب إليه، واختارته على ما سواه وآثرت ما لديه.

* * *

الفصل الثاني

مفسدات القلب وأسباب أمراضه[1]

تمهيد:

مفسدات القلب خمسة وهي :

- كثرة الخلطة .
- التمني .
- التعلق بغير الله تعالى .
- الشبع .
- كثر النوم .

فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب، فنذكر آثارها التي اشتركت فيها، وما تميز به كل واحد منها .

اعلم أن القلب يسير إلى الله عز وجل، والدار الآخرة، ويكشف عن طريق الحق ونهجه، وآفات النفس والعمل، وقطاع الطريق، بنوره وحياته وقوته، وصحته وعزمه، وسلامة سمعه وبصره، وغيبة الشواغل والقواطع عنه .

وهذه الخمسة تطفئ نوره، وتعور عين بصيرته، وتثقل سمعه، إن لم

---

(١) جاء هذا الموضوع في كتاب مدارج السالكين : ١/ ٤٥٣ ـ ٤٦٠ .

تَصُمه وتُبكمَه وتضعف قواه كلها. وتوهن صحته وتُفَتِّر عزيمته، وتوقف همته، وتنكسه إلى ورائـه. ومن لا شـعور له بهذا فميت القلب. وما لجرح بميت إيلام. فهي عائقة له عن نيل كماله. قاطعة له عن الوصول إلى ما خلق له. وجعل نعيمه وسعادته وابتهاجه ولذته في الوصول إليه.

فإنه لانعيم له ولالذة، ولا ابتهاج، ولاكمال، إلا بمعرفة الله ومحبته، والطمأنينـة بذكره، والفرح والابتهاج بقربـه، والشـوق إلى لقائـه. فهذه جنته العاجلة. كما أنه لانعيم له في الآخرة، ولافوز إلا بجواره في دار النعيم في الجنة الآجلة. فله جنتان. لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولى.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

وقال بعض العارفين: إنه لتمر بالقلب أوقات. أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا. إنهم لفي عيش طيب.

وقال بعض المحبين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه ـ و نحو هذا من الكلام.

وكل من له قلب حي يشهد هذا ويعرفه ذوقاً.

وهذه الأشياء الخمسة: قاطعة عن هذا، حائلة بين القلب وبينه، عائقة له عن سيره، ومحدثة له أمراضاً وعللاً، إن لم يتداركها المريض خيف عليه منها.

المفسد الأول ـ كثرة الخلطة:

فأما ما تؤثره كثرة الخلطة: فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتى يسـودَ، ويوجب له تشـتتاً وتفرقاً، وهماً وغماً، وضعفاً، وحملاً لما

يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء، وإضاعة مصالحه، والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتَقَسُّم فكره في أودية مطالبهم وإرادتهم. فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟.

هذا، وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة؟ وأنزلت من محنة، وعطلت من منحة، وأحلت من رزية، ووقعت في بلية؟ وهل آفة الناس إلا الناس؟ وهل كان على أبي طالب ـ عند الوفاة ـ أضر من قرناء السوء؟ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد.

وهذه الخلطة التي تكون على نوع مودة في الدنيا، وقضاء وطر بعضهم من بعض، تنقلب إذا حَقَّت الحقائق عداوة، ويعض المخلط عليها يديه ندماً.

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩].

وقال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وقال خليله إبراهيم لقومه: ﴿ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وهذا شأن كل مشتركين في غرض. يتوادون ما داموا متساعدين على حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض، أعقب ندامة وحزناً وألماً. وانقلبت تلك المودة بغضاً ولعنة، وذماً من بعضهم لبعض، لما انقلب ذلك الغرض حزناً وعذاباً، كما يشاهد في هذه الدار من أحوال المشتركين في خزيه، إذا أُخذوا وعوقبوا. فكل متساعدين على باطل، متوادِّين عليه: لا بد أن تنقلب مودتهما بغضاً وعداوة.

والضابط النافع في أمر الخلطة : أن يخالط الناس في الخير ـ كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلم العلم، والجهاد، والنصيحة ـ ويعتزلهم في الشر، وفضول المباحات. فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر، ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذَر الحذَر أن يوافقهم. وليصبر على أذاهم، فإنهم لا بد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر. ولكن أذىً يعقبه عز ومحبة له وتعظيم، وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين. وموافقتُهم يعقبها ذُلٌّ وبُغْضٌ له، ومقت، وذم منهم ومن المؤمنين، ومن رب العالمين.

فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة، وأحمد مآلاً، وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات. فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله، إن أمكنه، ويشجع نفسه ويقوي قلبه، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك، بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك، ونحو ذلك، فليحاربه، وليستعن بالله، ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه.

فإن أعجزته المقادير عن ذلك، فَلْيَسُلّ قلبه من بينهم كسلِّ الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضراً غائباً، قريباً بعيداً، نائماً يقظاناً. ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه، لأنه قد أخذ قلبه من بينهم، ورقى به إلى الملأ الأعلى، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية. وما أصعب هذا وأشقه على النفوس، وإنه ليسير على من يسره الله عليه. فبين العبد وبينه أن يَصْدُق الله تبارك وتعالى، ويديم اللجأ إليه، ويلقي نفسه على بابه طريحاً ذليلاً، ولا يعين على هذا إلا محبة صادقة، والذكر الدائم بالقلب واللسان، وتجنب المفسدات الأربع الباقية الآتي ذكرها. ولا ينال هذا إلا بعدة صالحة ومادة قوة من الله عز وجل، وعزيمة صادقة، وفراغ من التعلق بغير الله تعالى. والله تعالى أعلم.

وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة. بمقدار الحاجة[1].
ويجعل الناس فيها أربعة أقسام، متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينهما دخل عليه الشر.

أحدها: مَنْ مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه في اليوم والليلة، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة، ثم إذا احتاج إليه خالطه هكذا على الدوام، وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر، وهم العلماء بالله وأمره ومكايد عدوه وأمراض القلوب وأدويتها، الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كله.

القسم الثاني: مَنْ مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرض، فما دمت صحيحاً فلا حاجة لك في خلطته، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها، فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من القسم الثالث.

القسم الثالث: وهم من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه، فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن، وهو من لا تربح عليه في دين ولا دنيا، ومع ذلك فلا بد من أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما، فهذا إذا تمكنت مخالطته واتصلت فهي مرض الموت المخوف.

ومنهم من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضرباً فإذا فارقك سكن الألم.

ومنهم من مخالطته حمى الروح وهو الثقيل البغيض العقل، الذي

---

(١) من هنا وحتى آخر هذه الفقرة من كتاب (بدائع الفوائد): ٢/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها، بل إن تكلم فكلامه كالعصي تنزل على قلوب السامعين، مع إعجابه بكلامه وفرحه به، فهو يحدث من فيه كلما تحدث، ويظن أنه مسك يطيب به المجلس، وإن سكت فأثقل من نصف الرحا العظيمة، التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض.

ويذكر عن الشافعي رحمه الله أنه قال: ما جلس إلى جانبي ثقيل إلا وجدت الجانب الذي هو فيه أنزل من الجانب الآخر.

ورأيت يوماً عند شيخنا قدس الله روحه رجلاً من هذا الضرب، والشيخ يحمله وقد ضعفت القوى عن حمله، فالتفت إليّ وقال: مجالسة الثقيل حمى الربع، ثم قال: لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمى فصارت لها عادة أو كما قال.

وبالجملة فمخالطة كل مخالف حمى للروح فعرضية ولازمة. ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحد من هذا الضرب، وليس له بد من معاشرته ومخالطته، فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له فرجاً ومخرجاً.

القسم الرابع: مَنْ مخالطته الهلك كله ومخالطته بمنزلة أكل السم، فإن اتفق لآكله ترياق وإلا فأحسن الله فيه العزاء، وما أكثر هذا الضرب في الناس لا كثَّرهم الله، وهم أهل البدع والضلالة الصادون عن سنة رسول الله ﷺ، الداعون إلى خلافها، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً، فيجعلون البدعة سنة والسنة بدعة والمعروف منكراً والمنكر معروفاً.

إن جردت التوحيد بينهم قالوا: تنقصت جناب الأولياء والصالحين.

وإن جردت المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا: أهدرت الأئمة المتبوعين.

وإن وصفت الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير غلوّ ولا تقصير، قالوا: أنت من المشبهين.

وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف، ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر، قالوا: أنت من المفتنين.

وإن اتبعت السنة، وتركت ما خالفها قالوا: أنت من أهل البدع المضلين.

وإن انقطعت إلى الله تعالى، وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا قالوا: أنت من الملبسين.

وإن تركت ما أنت عليه، واتبعت أهواءهم، فأنت عند الله من الخاسرين وعندهم من المنافقين.

فالحزم كل الحزم التماس مرضات الله تعالى ورسوله بإغضابهم، وأن لا تشتغل بإعتابهم ولا باستعتابهم، ولا تبالي بذمهم ولا بغضهم، فإنه عين كمالك كما قال:

وإذا أتتكَ مذمَّتِي مِنْ نَاقِصٍ ... فهيَ الشَّهادةُ لي بأنِّي فاضِلُ

المفسد الثاني ـ التمني:

والمفسد الثاني من مفسدات القلب ركوبُه بحرَ التمنّي، وهو بحر لا ساحل له. وهو البحر الذي يركبه مفاليس العالم، كما قيل: إن المنَى رأسُ أموالِ المفاليس. وبضاعة ركابه مواعيد الشيطان، وخيالات المحال والبهتان. فلا تزال أمواج الأماني الكاذبة، والخيالات الباطلة، تتلاعب براكبه كما تتلاعب الكلاب بالجيفة، وهي بضاعة كل نفس مهينة خسيسة سفلية. ليست لها همة تنال بها الحقائق الخارجية. بل اعتاضت عنها بالأماني الذهنية. وكلٌّ بحسب حاله: من متمن للقدرة والسلطان، وللضرب في الأرض والتطواف في البلدان، أو للأموال والأثمان، أو للنسوان والمردان، فيمثل المتمني صورة مطلوبه في نفسه وقد فاز بوصولها، وَالْتَذَّ بالظفر بها. فبينا هو على هذه الحال، إذ استيقظ فإذا يده والحصير.

وصاحب الهمة العلية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان. والعمل الذي يقربه إلى الله. ويدنيه من جواره.

فأماني هذا إيمان ونور وحكمة. وأماني أولئك خدع وغرور.

وقد مدح النبي ﷺ متمني الخير. وربما جعل أجره في بعض الأشياء كأجر فاعله، كالقائل: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان الذي يتقي في ماله ربه. ويصل فيه رحمه، ويخرج منه حقه. وقال: (هما في الأجر سواء)، وتمنّى ﷺ في حجة الوداع: أنه لو كان تمتع وحَلَّ ولم يُسِقِ الهدي، وكان قد قَرَن. فأعطاه الله ثواب القران بفعله، وثواب التمتع الذي تمناه بأمنيته، فجمع له بين الأجرين.

المفسد الثالث ـ التعلق بغير الله تعالى:

والمفسد الثالث من مفسدات القلب التعلق بغير الله تبارك وتعالى. وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق.

فليس عليه أضر من ذلك. ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه، فإنه إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى ما تعلق به. وخذله من جهة ما تعلق به. وفاته تحصيل مقصوده من الله عز وجل، بتعلقه بغيره، والتفاته إلى سواه. فلا على نصيبه من الله حصل. ولا إلى ما أمله ممن تعلق به وصل.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨١ ـ ٨٢]. وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ [يس: ٧٤ ـ ٧٥].

فأعظم الناس خذلاناً من تعلق بغير الله. فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه، أعظم مما حصل له ممن تعلق به. وهو معرَّض للزوال

والفوات. ومثل المتعلق بغير الله: كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت، أوهن البيوت.

وبالجملة: فأساس الشرك وقاعدته التي بني عليها: التعلق بغير الله. ولصاحبه الذم والخذلان، كما قال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ [الإسراء: ٢٢] مذموماً لا حامد لك. مخذولاً لا ناصر لك. إذ قد يكون بعض الناس مقهوراً محموداً كالذي قهر بباطل. وقد يكون مذموماً منصوراً. كالذي قهر وتسلط عليه بباطل. وقد يكون محموداً منصوراً كالذي تمكن وملك بحق. والمشرك المتعلق بغير الله قسمه أردأ الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور.

المفسد الرابع ـ الشبع:

والمفسد له من ذلك نوعان:

أحدهما ما يفسده لعينه وذاته كالمحرمات. وهي نوعان:

محرمات لحق الله، كالميتة والدم، ولحم الخنزير، وذي الناب من السباع والمخلب من الطير.

ومحرمات لحق العباد. كالمسروق والمغصوب والمنهوب. وما أخذ بغير رضى صاحبه، إما قهراً وإما حياء وتذمماً.

والثاني: ما يفسده بقدره: وتعدى حده، كالإسراف في الحلال، والشبع المفرط، فإنه يثقله عن الطاعات. ويشغله بمزاولة مؤنة البطنة ومحاولتها، حتى يظفر بها. فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها، والتأذي بثقلها، وقوى عليه مواد الشهوة، وطرق مجاري الشيطان ووسعها، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم. فالصوم يضيق مجاريه ويسد عليه طرقه، والشبع يطرقها ويوسعها. ومن أكل كثيراً شرب كثيراً. فنام كثيراً. فخسر كثيراً. وفي الحديث المشهور (ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطنه.

بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه. فإن كان لا بد فاعلاً فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه)[1].

ويحكى أن إبليس ـ لعنه الله ـ عرض ليحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام، فقال له يحيى: هل نلت مني شيئاً قط؟ قال: لا. إلا أنه قُدِّم إليك الطعام ليلة فشَهَّيته إليك حتى شبعت منه. فنمت عن وردك. فقال يحيى: لله عليَّ أن لا أشبع من طعام أبداً. فقال إبليس: وأنا، لله عليّ أن لا أنصح آدمياً أبداً.

المفسد الخامس ـ كثرة النوم:

فإنه يميت القلب، ويثقل البدن، ويضيع الوقت، ويورث كثرة الغفلة والكسل. ومنه المكروه جداً. ومنه الضار غير النافع للبدن.

وأنفع النوم: ما كان عند شدة الحاجة إليه. ونوم أول الليل أحمد وأنفع من آخره. ونوم وسط النهار أنفع من طرفيه. وكلما قرب النوم من الطرفين قل نفعه. وكثر ضرره. ولا سيما نوم العصر. والنوم أول النهار إلا لسهران.

ومن المكروه عندهم: النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس. فإنه وقت غنيمة. وللسير ذلك الوقت عند السالكين مزية عظيمة. حتى لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا بالقعود عن السير ذلك الوقت حتى تطلع الشمس. فإنه أول النهار ومفتاحه. ووقت نزول الأرزاق، وحصول القسم، وحلول البركة. ومنه ينشأ النهار. وينسحب حكم جميعه على حكم تلك الحصة. فينبغي أن يكون نومها كنوم المضطر.

وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه: نوم نصف الليل الأول، وسدسه

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠)؛ وابن ماجه (٣٣٤٩).

الأخير. وهو مقدار ثمان ساعات. وهذا أعدل النوم عند الأطباء. وما زاد عليه أو نقص منه أثر عندهم في الطبيعة انحرافاً بحسبه.

ومن النوم الذي لاينفع أيضاً: النوم أول الليل، عقيب غروب الشمس، حتى تذهب فحمة العشاء. وكان رسول الله ﷺ يكرهه. فهو مكروه شرعاً وطبعاً.

وكما أن كثرة النوم موروثة لهذه الآفات، فمدافعته وهجره، مورث لآفات أخرى عظام: من سوء المزاج ويبسه، وانحراف النفس، وجفاف الرطوبات المعينة على الفهم والعمل. ويورث أمراضاً متلفة لاينتفع صاحبها بقلبه ولا بدنه معها. وما قام الوجود إلا بالعدل. فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير. وبالله المستعان.

المفسد السادس ـ فضول النظر[1]:

إن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان، ووقوع صورة المنظور إليه في القلب، والاشتغال به والفكرة في الظفر به، فمبدأ الفتنة من فضول النظر، كما في (المسند) عن النبي ﷺ أنه قال: (النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن غض بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه) أو كما قال ﷺ.

فالحوادث العظام إنما كلها من فضول النظر فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة كما قال الشاعر:

---

(١) قال المصنف في الفوائد، ص١٨٢: قسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة: الأكل، والنوم، والكلام، والمخالطة؛ وقال في بدائع الفوائد: ٢/ ٢٧١ في صدد التحرز من الشيطان: «إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس».

فأضاف في هذين النصين: فضول النظر، وفضول الكلام، فأضفتهما إلى الموضوع من كتاب (بدائع الفوائد): ٢/ ٢٧١ ـ ٢٧٣.

كلُّ الحوادث مبداها مِنَ النَّظَرِ ... وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ
كَمْ نَظْرَةٍ فَتَكَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا ... فَتْكَ السِّهَامِ بِلا قَوْسٍ وَلا وَتَرِ

وقال الآخر:

وَكنتَ مَتَىٰ أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِداً ... لِقَلْبِكَ يَوْمَاً أَتْعَبَتْكَ الْمَنَاظِرُ
رَأَيْتَ الَّذِي لا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ ... عَلَيْهِ وَلا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ

والمقصود: أن فضول النظر أصل البلاء.

المفسد السابع ـ فضول الكلام:

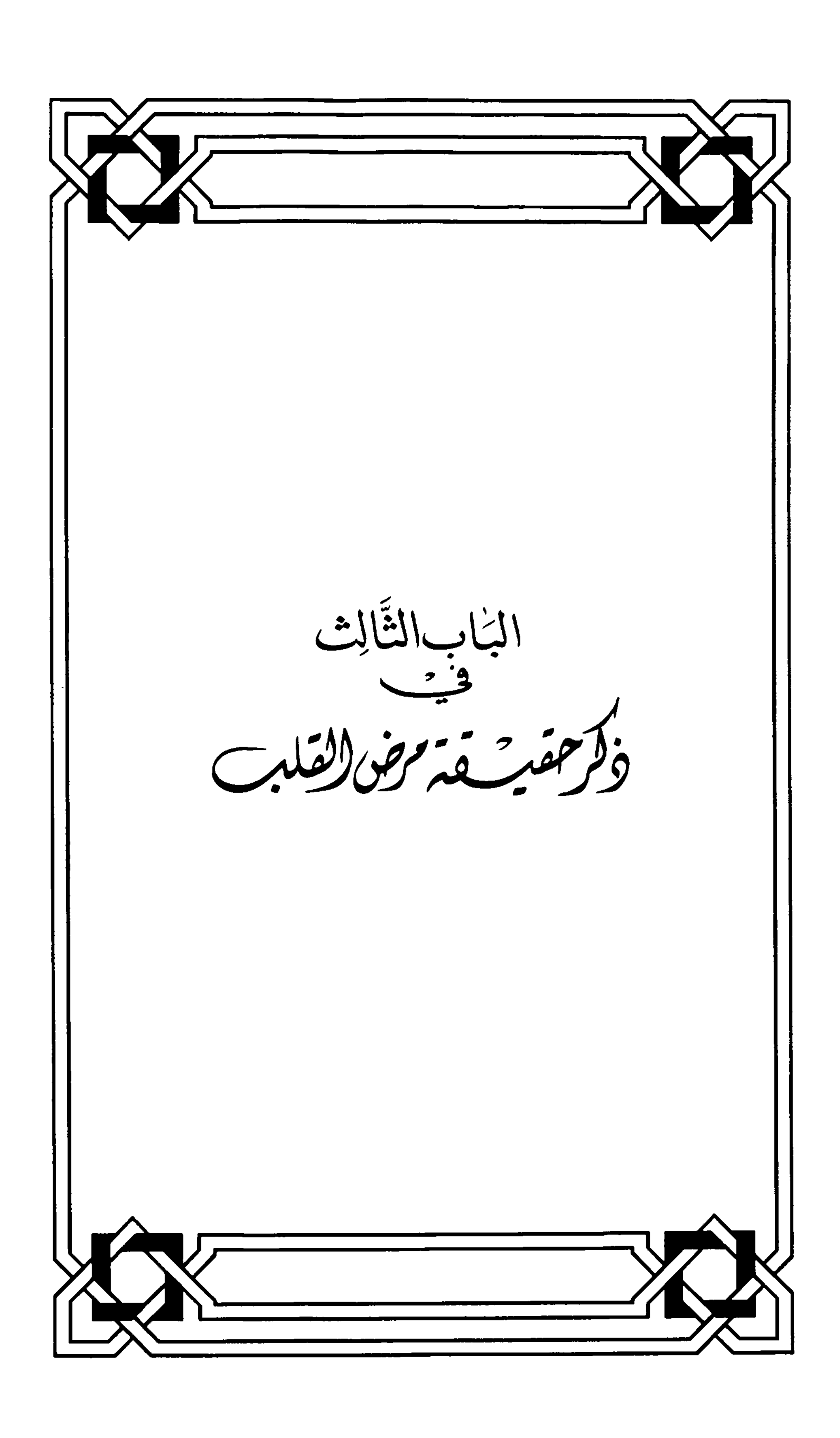
وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبواباً من الشر كلها مداخل للشيطان فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها، وكم من حرب جرتها كلمة واحدة، وقد قال النبي ﷺ لمعاذ: (وهل يَكبُّ الناسَ على مناخرِهم في النَّار إلا حَصائدُ ألسِنَتِهِم)[1]. وفي الترمذي أن رجلاً من الأنصار توفي فقال بعض الصحابة طوبى له فقال النبي ﷺ: (فما يدريك فلعله تكلم بما لا يعنيه أو بخل بمالاً ينقصه)[2].

وأكثر المعاصي إنما تولدها من فضول الكلام والنظر، وهما أوسع مداخل الشيطان، فإن جارحتيهما لا يملان ولا يسئمان، بخلاف شهوة البطن فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام، وأما العين واللسان فلو تركا لم يفترا من النظر والكلام، فجنايتهما متسعة الأطراف كثيرة الشعب عظيمة الآفات، وكان السلف يحذرون من فضول النظر كما يحذرون من فضول الكلام، وكانوا يقولون: ما شيء أحوج إلى طول السجن من اللسان.

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٢٦١٦)؛ وابن ماجه (٣٩٧٣).
(٢) رواه الترمذي (٢٣١٦)؛ وضعفه الألباني.



البَاب الثَّالِث
في
ذكر حقيقة مرض القلب

الفصل الأول

حقيقة مرض القلب

[ذكر مرض القلب في آيات كريمة]:

قال الله تعالى عن المنافقين:

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠].

وقال تعالى: ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [الحج: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

أمرهن تعالى أن لا يَلِنّ في كلامهن، كما تلين المرأة المعطية اللّيان في منطقها، فيطمع الذي في قلبه مرض الشهوة، ومع ذلك فلا يَخْشَنّ في القول بحيث يلتحق بالفحش، بل يقلن قولاً معروفاً.

وقال تعالى: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٦٠][1].

[اختلاف موقف القلوب أمام الأمر الواحد]:

وقال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً

---

(١) لعل مراد المؤلف من ذكر هذه الآيات الكريمة، هو بيان وإلقاء الضوء على الذين في قلوبهم مرض.

لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ [المدثر: ٣١].

أخبر سبحانه وتعالى عن الحكمة التي جعل لأجلها عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر.

فذكر سبحانه خمس حكم:

فتنة الكافرين. فيكون ذلك زيادة في كفرهم وضلالهم.

وقوة يقين أهل الكتاب، فتقوى أنفسهم بموافقة الخبر بذلك لما عندهم عن أنبيائهم من غير تلق من رسول الله ﷺ عنهم، فتقوم الحجة على معاندهم، وينقاد للإيمان من يرد الله أن يهديه.

وزيادة إيمان الذين آمنوا بكمال تصديقهم بذلك والإقرار به.

وانتفاء الريب عن أهل الكتاب لجزمهم بذلك، وعن المؤمنين لكمال تصديقهم به.

فهذه أربعة حكم:

- فتنة الكفار.
- ويقين أهل الكتاب.
- وزيادة إيمان المؤمنين.
- وانتفاء الريب عن المؤمنين، وأهل الكتاب.

الخامس: حيرة الكافر ومن في قلبه مرض، وعمى قلبه عن المراد بذلك، فيقول: ﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ [البقرة: ٢٦].

وهذه حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها:

قلب يفتتن به كفراً وجحوداً.

وقلب يزداد به إيماناً وتصديقاً.

وقلب يتيقنه، فتقوم عليه به الحجة.

وقلب يوجب له حيرة وعمى، فلا يدري ما يراد به.

واليقين وعدم الريب في هذا الموضع:

- إن رجعا إلى شيء واحد، كان ذكر عدم الريب مقرراً لليقين ومؤكداً له، ونافياً عنه ما يضاده بوجه من الوجوه.

- وإن رجعا إلى شيئين، بأن يكون اليقين راجعاً إلى الخبر المذكور عن عدة الملائكة، وعدمُ الريبِ عائداً إلى عموم ما أخبر الرسول به. لدلالة هذا الخبر الذي لا يعلم إلا من جهة الرسل على صدقه، فلا يرتاب من قد عرف صحة هذا الخبر بعد في صدق الرسول، ظهرت فائدة ذكره.

والمقصود: ذكر مرض القلب وحقيقته.

[وشفاء لما في الصدور]:

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

فهو شفاء لما في الصدور من مرض الجهل والغَيِّ، فإن الجهل مرض شفاؤه العلم والهدى. والغي مرض شفاؤه الرشد.

وقد نزه الله تعالى نبيه عن هذين الداءين. فقال: ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١ - ٢].

ووصف الرسول ﷺ خلفاءه بضدهما فقال ﷺ: (عليكم بسنّتي

وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي)[1].

وجعل كلامه سبحانه موعظة للناس عامة، وهدى ورحمة لمن آمن به خاصة، وشفاء تاماً لما في الصدور، فمن استشفى به صح وبرئ من مرضه، ومن لم يستشف به فهو كما قيل:

فإذا بَلَّ[2] من داءٍ به ظَنَّ أنَّهُ نجا، وبهِ الدَّاءُ الَّذي هو قاتِلُهُ

وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

والأظهر أن (من) ههنا لبيان الجنس، فالقرآن جميعه شفاء ورحمة للمؤمنين.

* * *

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)؛ والترمذي (٢٦٧٦)؛ وابن ماجه (٤٢ ـ ٤٤)؛ والدارمي (٩٥)؛ وصححه الألباني.
(٢) بل وأبل من مرضه، إذا تعافى منه وبرأ.

الفصل الثاني

أسباب مرض الجسم والقلب

[بيان أمراض الجسم وطرق علاجها]:

ولمَّا كان مرض البدن خلاف صحته وصلاحه، وهو: خروجه عن اعتداله الطبيعي، لفساد يعرض له، يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية.

فإما أن يذهب إدراكه بالكلية، كالعمى والصمم والشلل.

وإما أن ينقص إدراكه لضعف في آلات الإدراك مع استقامة إدراكه.

وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه، كما يدرك الحلوَ مُرّاً، والخبيث طيباً، والطيب خبيثاً.

وأما فساد حركته الطبيعية فمثل أن تضعف قوته الهاضمة، أو الماسكة، أو الدافعة، أو الجاذبة، فيحصل له من الألم بحسب خروجه عن الاعتدال، ولكن مع ذلك لم يصل إلى حد الموت والهلاك، بل فيه نوع قوة على الإدراك والحركة. وسبب هذا الخروج عن الاعتدال: إما فساد في الكمية، أو في الكيفية.

فالأول: إما لنقص في المادة، فيحتاج إلى زيادتها. وإما لزيادة فيها فيحتاج إلى نقصانها.

والثاني: إما بزيادة الحرارة، أو البرودة، أو الرطوبة، أو اليبوسة، أو نقصانها عن القدر الطبيعي، فيداوي بمقتضى ذلك.

ومدار الصحة على حفظ القوة والحمية عن المؤذي، واستفراغ المواد الفاسدة.

ونظر الطبيب دائر على هذه الأصول الثلاثة. وقد تضمنها الكتاب العزيز، وأرشد إليها من أنزله شفاء ورحمة.

فأما حفظ القوة: فإن الله سبحانه تعالى أمر المسافر والمريض أن يفطرا في رمضان، ويقضي المسافر إذا قدم، والمريض إذا برئ، حفظاً لقوتهما عليهما، فإن الصوم يزيد المريض ضعفاً، والمسافر يحتاج إلى توفير قوته عليه لمشـقة السفر، والصوم يضعفها.

وأما الحمية عن المؤذي: فإنه سبحانه حمى المريض عن استعمال الماء البارد في الوضوء والغسل، إذا كان يضره، وأمره بالعدول إلى التيمم حِمْية له عن ورود المؤذي عليه من ظاهر بدنه، فكيف بالمؤذي له في باطنه.

وأما استفراغ المادة الفاسدة: فإنه سبحانه وتعالى أباح للمحرم الذي به أذى من رأسه أن يحلقه، فيستفرغ بالحلق الأبخرة المؤذية له، وهذا من أسهل أنواع الاستفراغ وأخفها، فنبه به على ما هو أحوج إليه منه.

وذاكرت مرة بعض رؤساء الطب بمصر بهذا، فقال: والله لو سافرتُ إلى الغرب في معرفة هذه الفائدة لكان سفراً قليلاً، أو كما قال.

[القلب كالجسد في أمراضه ومضاداتها]:

وإذا عرف هذا، فالقلب محتاج:

إلى ما يحفظ عليه قوته، وهو الإيمان وأوراد الطاعات.

وإلى حمية عن المؤذي الضار، وذلك باجتناب الآثام والمعاصي، وأنواع المخالفات.

وإلى استفراغه من كل مادة فاسدة تعرض له، وذلك بالتوبة النصوح، واستغفار غافر الخطيئات.

ومرضه هو نوع فساد يحصل له، يفسد به تصوره للحق وإرادته له،

فلا يرى الحق حقاً، أو يراه على خلاف ما هو عليه، أو ينقص إدراكه له، وتفسد به إرادته له، فيبغض الحق النافع، أو يحب الباطل الضار، أو يجتمعان له، وهو الغالب.

ولهذا يفسر المرض الذي يعرض له، تارة بالشك والريب، كما قال مجاهد وقتادة في قوله تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] أي شك. وتارة بشهوة الزنا، كما فسر به قوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

فالأول: مرض الشبهة.

والثاني: مرض الشهوة.

والصحة تُحفظ بالمِثْل والشَّبَه، والمرض يدفع بالضد والخلاف، وهو يقوى بمثل سببه، ويزول بضده، والصحة تحفظ بمثل سببها وتضعف أو تزول بضده.

ولما كان البدن المريض يؤذيه ما لا يؤذي الصحيح: من يسير الحر، والبرد، والحركة، ونحو ذلك، فكذلك القلب إذا كان فيه مرض آذاه أدنى شيء: من الشبهة أو الشهوة، حيث لا يقدر على دفعهما إذا وردا عليه، والقلب الصحيح القوي يطرقه أضعاف ذلك وهو يدفعه بقوته وصحته.

وبالجملة: فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه وضعفت قوته، وترامى إلى التلف، ما لم يتدارك ذلك، بأن يحصل له ما يقوي قوته، ويزيل مرضه، والله الموفق.

خلاصة أمر القلب:

القلب يمرض كما يمرض البدن.

وشفاؤه: في التوبة والحمية.

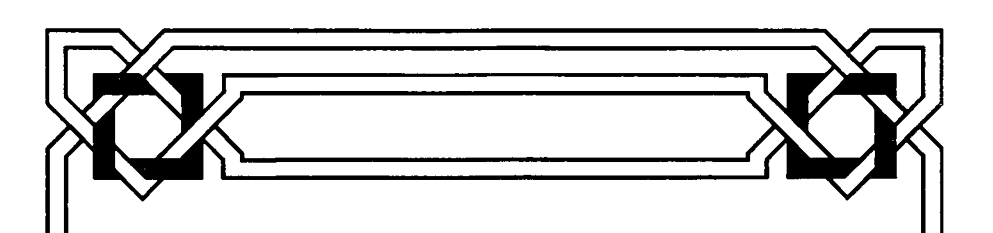
ويصدأ، كما تصدأ المرآة، وجلاؤه بالذكر.

ويُعرى، كما يعرى الجسم، وزينته التقوى.

ويجوع ويظمأ، كما يجوع البدن، وطعامه وشرابه: المعرفة والمحبة والتوكل والإنابة والخدمة[1].

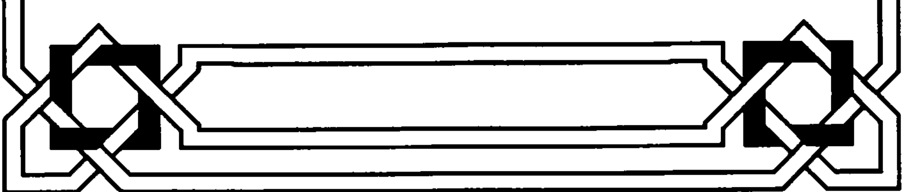
* * *

(١) جاءت هذه الفقرة في كتاب الفوائد، ص١٨٣.



البَابُ الرَّابِع

الوقاية من استيلاء النّفس على القلب



الفصل الأول

منشأ أمراض القلب من النفس

[التعوذ من شرور النفس]:

هذا الباب كالأساس والأصل لما بعده من الأبواب.

فإن سائر أمراض القلب إنما تنشأ من جانب النفس، فالموادُّ الفاسدة كلها إليها تنصبُّ، ثم تنبعث منها إلى الأعضاء. وأول ما تنال القلب.

وقد كان رسول الله ﷺ يقول في خطبة الحاجة: (الحمد لله نستعينه ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا)[1].

وفي (المسند) والترمذي من حديث حُصين بن عبيد أن رسول الله ﷺ قال له: (يا حُصين، كم تعبد؟) قال: سبعة، ستة في الأرض وواحد في السماء، قال: (فمن الذي تُعِدُّ لرَغْبتك ورَهْبتك؟) قال: الذي في السماء. قال: (أَسْلِمْ حتى أعلمك كلمات ينفعك الله بها) فأسلم. فقال: قل: (اللهم ألهمني رشدي. وقِني شرّ نفسي)[2].

وقد استعاذ ﷺ من شرها عموماً، ومن شر ما يتولَّد منها من الأعمال، ومن شر ما يترتب على ذلك من المكاره والعقوبات، وجمع بين الاستعاذة من شر النفس ومن سيئات الأعمال. وفيه وجهان:

أحدهما: أنه من باب إضافة النوع إلى جنسه، أي أعوذ بك من هذا النوع من الأعمال.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١١٨)؛ وكذا أصحاب السنن.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٨٣).

والثاني : أن المراد به عقوبات الأعمال التي تسوء صاحبها .

فعلى الأول : يكون قد استعاذ من صفة النفس وعملها .

وعلى الثاني : يكون قد استعاذ من العقوبات وأسبابها .

ويدخل العمل السيِّئ في شر النفس . فهل المعنى : ما يسوؤني من جزاء عملي ، أو من عملي السيِّئ ؟ .

وقد يترجح الأول ، فإن الاستعاذة من العمل السيِّئ بعد وقوعه إنما هي استعاذة من جزائه وموجبه ؛ وإلا فالموجود لا يمكن رفعه بعينه .

[النفس حاجز بين القلب وخالقه]:

وقد اتفق السالكون إلى الله على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم : على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب ، وأنه لا يُدخَلُ عليه سبحانه ولا يوصل إليه إلا بعد إماتتها وتركها بمخالفتها والظفر بها .

فإن الناس على قسمين :

قسم ظفرت به نفسه ، فملكته وأهلكته ، وصار طوعاً لها تحت أوامرها .

وقسم ظفروا بنفوسهم فقهروها ، فصارت طوعاً لهم منفذة لأوامرهم .

قال بعض العارفين : انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بأنفسهم . فمن ظفر بنفسه أفلح وأنجح ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك . قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٣٧ ـ ٤١] .

فالنفس تدعو إلى الطغيان ، وإيثار الحياة الدنيا .

والرب تعالى يدعو عبده إلى خوفه ونهي النفس عن الهوى .

والقلب بين الداعيين ، يميل إلى هذا الداعي مرة وإلى هذا مرة .

وهذا موضع المحنة والابتلاء.

[صفات للنفس، أم نفوس؟]:

وقد وصف سبحانه النفس في القرآن بثلاثة صفات: المطمئنة، والأمّارة بالسوء، واللوّامة.

فاختلف الناس: هل النفس واحدة، وَهذه أوصاف لها. أم للعبد ثلاث أنفس؟: نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة.

فالأول: قول الفقهاء والمتكلمين، وجمهور المفسرين، وقول محققي الصوفية.

والثاني: قول كثير من أهل التصوف.

والتحقيق: أنه لا نزاع بين الفريقين؛ فإنها واحدة باعتبار ذاتها، وثلاث باعتبار صفاتها. فإذا اعتبرت بنفسها فهي واحدة، وإن اعتبرت مع كل صفة دون الأخرى فهي متعددة، وما أظنهم يقولون إن لكل أحد ثلاث أنفس: كل نفس قائمة بذاتها، مساوية للأخرى في الحدّ والحقيقة، وأنه إذا قبض العبد قبضت له ثلاث أنفس، كل واحدة مستقلة بنفسها.

وحيث ذكر سبحانه النفس، وأضافها إلى صاحبها؛ فإنما ذكرها بلفظ الإفراد، وهكذا في سائر الأحاديث، ولم يجيء في موضع واحد (نفوسك) و(نفوسه) ولا (أنفسك) و(أنفسه) وإنما جاءت مجموعة عند إرادة العموم، كقوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ [التكوير: ٧]، أو عند إضافتها إلى الجمع؛ كقوله: (إنما أنفسنا بيد الله)[1] ولو كانت في الإنسان ثلاثة أنفس لجاءت مجموعة إذا أضيفت إليه ولو في موضع واحد.

* * *

(١) هو جزء من حديث طويل أخرجه مسلم برقم (٦٨٠).

الفصل الثاني
النفوس بحسب صفاتها

[النفس المطمئنة]:

فالنفس إذا سكنت إلى الله، واطمأنت بذكره، وأنابت إليه واشتاقت إلى لقائه، وأنست بقربه، فهي مطمئنة.

وهي التي يقال لها عند الوفاة: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٢٨].

قال ابن عباس: «يا أيتها النفس المطمئنة» يقول: المصدقة.

وقال قتادة: هو المؤمن، اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله.

وقال الحسن: المطمئنة بما قال الله، والمصدقة بما قال.

وقال مجاهد: هي المنيبة المخبتة التي أيقنت أن الله ربها، وضربت جاشاً لأمره وطاعته[1]، وأيقنت بلقائه.

وحقيقة الطمأنينة: السكون والاستقرار، فهي التي قد سكنت إلى ربها وطاعته وأمره وذكره، ولم تسكن إلى سواه، فقد اطمأنت إلى محبته وعبوديته وذكره، واطمأنت إلى أمره ونهيه وخبره، واطمأنت إلى لقائه ووعده، واطمأنت إلى التصديق بحقائق أسمائه وصفاته، واطمأنت إلى الرضى به رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، واطمأنت إلى قضائه وقدره، واطمأنت إلى كفايته وحَسْبِهِ وضمانه.

---

(١) أي قرت عيناً واطمأنت. وفي اللغة: جاش إليه: أقبل.

فاطمأنت بأنه وحده ربها وإلـٰهها ومعبودها ومليكها ومالك أمرها كله، وأن مرجعها إليه، وأنها لا غنى لها عنه طرفة عين.

[النفس الأمارة بالسوء]:

وإذا كانت بضد ذلك فهي أمارة بالسوء تأمر صاحبها بما تهواه: من شهوات الغيّ، واتباع الباطل، فهي مأوى كل سوء، إن أطاعها قادته إلى كل قبيح وكل مكروه.

وقد أخبر سبحانه أنها أمارة بالسوء، ولم يقل: «آمرة» لكثرة ذلك منها، وأنه عادتها ودأبها إلا إذا رحمها الله وجعلها زاكية تأمر صاحبها بالخير، فذلك من رحمه الله، لا منها. فإنها بذاتها أمارة بالسوء؛ لأنها خلقت في الأصل جاهلة ظالمة، والعدل والعلم طارئ عليها بإلهام ربها وفاطرها لها ذلك، فإذا لم يلهمها رشدها بقيت على ظلمها وجهلها. فلم تكن إلا أمارة لموجب الجهل والظلم، فلولا فضل الله ورحمته على المؤمنين ما زكت منهم نفس واحدة.

فإذا أراد سبحانه بها خيراً جعل فيها ما تزكو به وتصلح: من الإرادات والتصورات، وإذا لم يرد بها ذلك تركها على حالها التي خلقت عليها من الجهل والظلم.

وسبب الظلم: إما جهل، وإما حاجة. وهي في الأصل جاهلة. والحاجة لازمة لها، فلذلك كان أمرها بالسوء لازماً لها إن لم تدركها رحمة الله وفضله.

وبهذا يعلم أن ضرورة العبد إلى ربه فوق كل ضرورة، ولا تشبهها ضرورة تقاس بها، فإنه إن أمسك عنه رحمته وتوفيقه وهدايته طرفة عين خسر وهلك.

[النفس اللوامة]:

وأما اللوامة:

فاختلف في اشتقاق هذه اللفظة، هل هي من التلوم، وهو التلون والتردد، أو من اللوم؟.

وعبارات السلف تدور على هذين المعنيين.

قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: ما اللوامة؟ قال: هي النفس اللؤوم.

وقال مجاهد: هي التي تُنَدِّم على ما فات وتلوم عليه.

وقال قتادة: هي الفاجرة.

وقال عكرمة: تلوم على الخير والشر.

قال عطاء عن ابن عباس: كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة، تلوم المحسنَ نفسُه أن لا يكون ازداد إحساناً، وتلوم المسيءَ نفسُه أن لا يكون رجع عن إساءته.

وقال الحسن: إن المؤمن ـ والله ـ ما تراه إلا يلوم نفسه على كل حالاته، يستقصرها في كل ما يفعل فيندم ويلوم نفسه، وإن الفاجر لَيَمْضِي قُدُماً لا يعاتب نفسه.

فهذه عبارات من ذهب إلى أنها من اللوم.

وأما من جعلها من التلوم فلكثرة ترددها وتلومها، وأنها لا تستقر على حال واحدة.

والأول أظهر؛ فإن هذا المعنى لو أريد لقيل: المتلومة. كما يقال: المتلونة والمترددة. ولكن هو من لوازم القول الأول، فإنها لتلومها وعدم

ثباتهـا تفعل الشيء ثم تلوم عليه. فالتلوّم من لوازم اللوم.

[تقلب النفس]:

والنفس قد تكون تارة أمارة، وتارة لوامة، وتـارة مطمئنة، بل في اليـوم الواحد والساعة الواحدة يحصل منها هذا وهذا وهذا. والحكم للغالب عليها من أحوالها.

وكونها مطمئنة وصف مدح لها.

وكونها أمّارة بالسوء وصف ذم لها.

وكونها لوامة ينقسم إلى المدح والذم، بحسب ما تلوم عليه.

* * *

الفصل الثالث

علاج مرض القلب بمحاسبة النفس

[علاج مرض القلب]:

والمقصود: ذكر علاج مرض القلب باستيلاء النفس الأمارة عليه. وله علاجان:

محاسبتها.

ومخالفتها.

وهلاك القلب من إهمال محاسبتها، ومن موافقتها واتباع هواها.

وفي الحديث الذي رواه أحمد وغيره من حديث شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: (الكَيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنَّى على الله)[1].

دان نفسه: أي حاسبها.

[أقوال السلف في محاسبة النفس]:

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتَزَيّنوا للعرض الأكبر يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٤٥٩)؛ وابن ماجه (٤٢٦٠).

وذكر أيضاً عن الحسن قال: لا تلقى المؤمن إلا يحاسب نفسه: ما أردت بكلمتي ما أردت بأكلتي؟ ما أردت بشربتي، والفاجر يمضي قُدُماً قدماً لا يحاسب نفسه.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨]: أضاع نفسه وغبن، مع ذلك تراه حافظاً لماله مضيعاً لدينه.

وقال الحسن: إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته.

وقال ميمون بن مهران: لا يكون العبد تقياً حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه؛ ولهذا قيل: النفس كالشريك الخوّان، إن لم تحاسبه ذهب بمالك.

وقال ميمون بن مهران أيضاً: إن التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان عاص، ومن شريك شحيح.

وذكر الإمام أحمد عن وهب قال: مكتوب في حكمة آل داود: حق على العاقل: أن لا يغفل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل، فإن في هذه الساعة عونٌ على تلك الساعات، وإجمامٌ للقلوب.

وقد روى هذا مرفوعاً من كلام النبي ﷺ رواه أبو حاتم وابن حبان وغيره.

وكان الأحنف بن قيس يجيء إلى المصباح، فيضع أصبعه فيه، ثم يقول: حِسّ يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟.

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى بعض عماله: حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإن من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة عاد أمره إلى الرضى والغبطة، ومن ألهته حياته وشغلته أهواؤه عاد أمره إلى الندامة والخسارة.

وقال الحسن: المؤمن قَوّام على نفسه، يحاسب نفسه لله، وإنما خفّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شقّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة. إن المؤمن يفاجئه الشيء يعجبه، فيقول: والله إني لأشتهيك. وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات هيهات. حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه، فيقول: ما أردت إلى هذا؟ ما لي ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا أبداً، إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى، في فكاك نفسه، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله؛ يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعِهِ وفي بصره، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله.

قال مالك بن دينار: رحم الله عبداً قال لنفسه: ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم زمها[1]، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله عز وجل، فكان لها قائداً.

[مثال في كيفية محاسبة النفس]:

وقد مثلت النفس مع صاحبها بالشريك في المال.

فكما أنه لا يتم مقصود الشركة من الربح إلا بالمشارطة على ما يفعل الشريك أولاً.

---

(١) الزم: خرق الأنف، لوضع الزمام والخطام فيه.

ثم بمطالعة ما يعمل، والإشراف عليه ومراقبته ثانياً.

ثم بمحاسبته ثالثاً.

ثم بمنعه من الخيانة إن اطلع عليه رابعاً.

فكذلك النفس: يشارطها أولاً على حفظ الجوارح السبعة التي حفظها هو رأس المال. والربح بعد ذلك، فمن ليس له رأس مال، فكيف يطمع في الربح؟.

وهذه الجوارح السبعة[1]، وهي العين، والأذن، والفم، والفرج، واليد، والرجل: هي مركب العطب والنجاة، فمنها عطب من عطب بإهمالها. وعدم حفظها، ونجا من نجا بحفظها ومراعاتها، فحفظها أساس كل خير، وإهمالها أساس كل شر.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

وقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

وقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠].

---

(١) ذكر المصنف ستة فقط.

وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر: ١٨].

فإذا شارطها على حفظ هذه الجوارح انتقل منها إلى مطالعتها والإشراف عليها ومراقبتها، فلا يهملها، فإنه إن أهملها لحظة رتعت في الخيانة ولا بد، فإن تمادى على الإهمال تمادت في الخيانة حتى تُذْهِبَ رأس المال كله، فمتى أحسّ بالنقصان انتقل إلى المحاسبة.

فحينئذٍ يتبين له حقيقة الربح والخسران، فإذا أحس بالخسران وتيقنه استدرك منها ما يستدركه الشريك من شريكه: من الرجوع عليه بما مضى، والقيام بالحفظ والمراقبة في المستقبل.

ولا مطمع له في فسخ عقد الشركة مع هذا الخائن، والاستبدال بغيره، فإنه لا بد منه فليجتهد في مراقبته ومحاسبته، وليحذر من إهماله.

[ما يعين على المحاسبة]:

ويعينه على هذه المراقبة والمحاسبة: معرفته أنه كلما اجتهد فيها اليوم استراح منها غداً إذا صار الحساب إلى غيره، وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غداً.

ويعينه عليها أيضاً: معرفته أن ربح هذه التجارة سكنى الفردوس، والنظر إلى وجه الرب سبحانه، وخسارتها: دخول النار والحجاب عن الرب تعالى، فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم.

فحق على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها، فكل نَفَسٍ من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا خطر لها، يمكن أن يشتري بها كنزاً من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد.

فإضاعة هذه الأنفاس، أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه: خسران عظيم لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلاً. وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

* * *

الفصل الرابع

محاسبة النفس

ومحاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل ونوع بعده.

[محاسبة النفس قبل العمل]:

فأما النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همته وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه.

قال الحسن رحمه الله: رحم الله عبداً وقف عند هَمِّه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر.

وشرح هذا بعضهم فقال: إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال وهَمَّ به العبد، وقف أوّلاً ونظر: هل ذلك العمل مقدور له أو غير مقدور ولا مستطاع؟.

فإن لم يكن مقدوراً لم يقدم عليه.

وإن كان مقدوراً وقف أخرى ونظر: هل فعلُه خير له من تركه، أو تركه خير له من فعله؟.

فإن كان الثاني تركه ولم يقدم عليه.

وإن كان الأول وقف وقفة ثالثة ونظر: هل الباعث عليه إرادة وجه الله وثوابه أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق؟.

فإن كان الثاني لم يقدم عليه ـ وإن أفضى به إلى مطلوبه ـ لئلا تعتاد

النفس الشـرك. ويخفّ عليها العمل لغير الله، فبقدر ما يخف عليها ذلك يثقل عليها العمل لله، حتى يصير أثقل شيء عليها.

وإن كان الأول وقف وقفة أخرى، ونظر: هل هو مُعان عليه، وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان العمل محتاجاً إلى ذلك أم لا؟ فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه، كما أمسك النبي ﷺ عن الجهاد بمكة حتى صار له شَوْكة وأنصار. وإن وجده مُعاناً عليه فليقدم عليه فإنه منصور.

ولايفـوّت النجاحَ إلا مَنْ فَوّتَ خصلة من هذه الخصال، وإلا فمع اجتماعها لا يفوتُه النجاح.

فهذه أربع مقامات يحتاج إلى محاسبة نفسه عليها قبل الفعل.

فما كل ما يريد العبد فعله يكون مقدوراً له.

ولا كل ما يكون مقدوراً له يكون فعله خيراً له من تركه.

ولا كل ما يكون فعله خيراً له من تركه يفعله لله.

ولا كل ما يفعله لله يكون معاناً عليه.

فإذا حاسب نفسه على ذلك تبين له ما يقدم عليه، وما يحجم عنه.

[محاسبة النفس بعد العمل]:

النوع الثاني: محاسبة النفس بعد العمل، وهو ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسـبتها على طاعة قصّرت فيها من حق الله؛ فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي.

وحـق الله في الطاعة سـتة أمور قد تقدمت، وهي: الإخلاص في العلم، والنصيحة لله فيه، ومتابعة الرسول فيه، وشهود مشهد الإحسان فيه، وشهود مِنَّة الله عليه فيه، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله.

فيحاسب نفسه: هل وَفَّى هذه المقامات حقها؛ وهل أتى بها في هذه الطاعة.

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركُه خيراً له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح، أو معتاد: لِمَ فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؟ فيكون رابحاً، أو أراد به الدنيا وعاجلها؛ فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به.

[ضرر ترك محاسبة النفس]:

وأضر ما عليه: الإهمال، وترك المحاسبة والاسترسال، وتسهيل الأمور وتمشيتها، فإن هذا يؤول به إلى الهلاك، وهذه حال أهل الغرور: يغمض عينيه عن العواقب، ويُمَشِّي الحال، ويتكل على العفو؛ فيهمل محاسبة نفسه، والنظر في العاقبة. وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة الذنوب، وأنس بها، وعسر عليه فِطَامها، ولو حضره رشده لعلم أن الحمية أسهل من الفطام وترك المألوف والمعتاد.

قال ابن أبي الدنيا: حدثني رجل من قريش، ذكر أنه من ولد طلحة ابن عبيد الله قال: كان تَوْبَةُ بن الصِّمَّة بالرَّقَّةِ، وكان محاسباً لنفسه، فحسب يوماً، فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها، فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وستمائة يوم، فصرخ، وقال: يا ويلتي! ألقى ربي بأحد وعشرين ألف ذنب؟ كيف وفي كل يوم آلاف من الذنوب؟. ثم خَرَّ مَغْشِياً عليه، فإذا هو ميت، فسمعوا قائلاً يقول: يا لكِ رَكْضَةً إلى الفردوس الأعلى.

[المحاسبة على الإخلاص والمتابعة]:

وجماع ذلك:

أن يحاسب نفسه أوّلاً على الفرائض، فإن تذكر فيها نقصاً تداركه، إما بقضاء أو إصلاح.

ثم يحاسبها على المناهي، فإن عرف أنه ارتكب منها شيئاً تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية.

ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله.

ثم يحاسبها بما تكلم به، أو مشت إليه رجلاه، أو بطشت يداه، أو سمعته أذناه: ماذا أرادت بهذا؟ ولمن فعلته؟ وعلى أي وجه فعلته؟ ويعلم أنه لا بد أن يُنشر لكل حركة وكلمة منه ديوانان: ديوان لمن فعلتَه؟ وكيف فعلتَه؟.

فالأول سؤال عن الإخلاص.

والثاني سؤال عن المتابعة[1].

وقال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر: ٩٢ ـ ٩٣].

وقال تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٦ ـ ٧].

وقال تعالى: ﴿ لِيَسْـَٔلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٨].

فإذا سئل الصادقون وحوسبوا على صدقهم فما الظن بالكاذبين؟.

قال مقاتل يقول تعالى: أخذنا ميثاقهم لكي يسأل الله الصادقين ـ يعني النبيين ـ عن تبليغ الرسالة.

وقال مجاهد: يسأل المبلغين المؤدين عن الرسل ـ يعني: هل بلغوا عنهم ـ كما يسأل الرسل، هل بلغوا عن الله.

---

(١) المتابعة: المقصود بها: متابعة الرسول ﷺ والعمل بسنته.

والتحقيق: أن الآية تتناول هذا وهذا، فالصادقون هم الرسل، والمبلغون عنهم، فيسأل الرسل عن تبليغ رسالاته ويسأل المبلغين عنهم عن تبليغ مابلغهم الرسل، ثم يسأل الذين بلغتهم الرسالة ماذا أجابوا المرسلين، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

قال قتادة: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون:

ماذا كنتم تعبدون؟.

وماذا أجبتم المرسلين؟.

فيسأل عن المعبود وعن العبادة.

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

قال محمد بن جرير: يقول تعالى: ثم ليسألنكم الله عزَّ وجلّ عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا: ماذا عملتم فيه؟ من أين وصلتم إليه؟ وفيم أصبتموه؟ وماذا عملتم به؟.

وقال قتادة: إن الله يسأل كل عبد عما استودعه من نعمه وحقه.

والنعيم المسؤول عنه نوعان: نوع أخذ من حله وصرف في حقه، فيسأل عن شكره. ونوع أخذ بغير حله وصرف في غير حقه، فيسأل عن مستخرجه ومصرفه.

فإذا كان العبد مسؤولاً ومحاسباً على كل شيء، حتى على سمعه وبصره وقلبه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٦]؛ فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب.

[وجوب محاسبة النفس]:

وقد دل على وجوب محاسبة النفس قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]، يقول تعالى: لينظر أحدكم ما قدم ليوم القيامة من الأعمال: أمن الصالحات التي تنجيه، أم من السيئات التي توبِقُه؟.

قال قتادة: ما زال ربكم يقرب الساعة حتى جعلها كغد.

والمقصود: أن صلاح القلب بمحاسبة النفس، وفساده بإهمالها والاسترسال معها.

* * *

الفصل الخامس

فوائد محاسبة النفس

وفي محاسبة النفس عدة مصالح :

[الاطلاع على عيوب النفس]:

منها : الاطلاع على عيوبها ، ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته ، فإذا اطلع على عيبها مقتها في ذات الله .

وقد روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء قال: لا يَفْقَه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله ، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً .

وقال مُطَرِّف بن عبد الله : لولا ما أعلم من نفسي لقَلَيْتُ الناس .

وقال مطرف في دعائه بعرفة : اللهم لا تردَّ الناس لأجلي .

وقال بَكْرُ بن عبد الله المُزَني لما نظرت إلى أهل عرفات ظننت أنهم قد غفر لهم، لولا أني كنت فيهم .

وقال أيوب السختياني : إذا ذكر الصالحون كنتُ عنهم بمعْزِل .

ولما احْتُضِرَ سفيان الثوري دخل عليه أبو الأشهب، وحماد بن سلمة، فقال له حماد: يا أبا عبد الله ، أليس قد أمنت مما كنت تخافه؟ وتقدم على من ترجوه، وهو أرحم الراحمين، فقال : يا أبا سلمة ، أتطمع لمثلي أن ينجو من النار؟ قال : إي والله ، إني لأرجو لك ذلك .

وذكر ابن زيد عن مسلم بن سعيد الواسطي قال : أخبرني حَمَّاد بن جعفر ابن زيد : أن أباه أخبره قال : «خرجنا في غَزاةٍ إلى كابُل ، وفي الجيش : صِلة

ابن أشْيَم؛ فنزل الناس عند العتمة، فصلوا ثم اضطجع، فقلت: لأرمقَنّ عمله، فالتمسَ غفلة الناس، حتى إذا قلتُ: هَدأت العيون وَثَب فدخل غَيْضَة قريباً منا، ودخلت على أثره، فتوضأ، ثم قام يصلي، وجاء أسد حتى دنا منه، فصعدت في شجرة فتراهُ التفت أو عَدَّهُ جَرْواً؟ فلما سجد قلت: الآن يفترسه، فجلس ثم سلم، ثم قال: أيها السبع، اطلب الرزق من مكان آخر. فولّى وإن له لزئيراً، أقول: تصدّع الجبال منه. قال: فما زال كذلك يصلي حتى كان عند الصبح جلس، فحمد الله بمحامد لم أسمع بمثلها، ثم قال: اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار، ومثلي لا يجترئ أن يسـألك الجنة؛ قـال: ثم رجع وأصبح كأنه بات على الحشـايا، وأصبحت وبي من الفزع شيء الله به عالم.

وقال يونس بن عبيد: إني لأجد مائة خصلة من خصال الخير، ما أعلم أن في نفسي منها واحدة.

وقال محمد بن واسع: لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد يجلس إلى الأرض.

وذكر ابن أبي الدنيا عن الخلد بنِ أيوب قال: كان راهب في بني إسرائيل في صومعة منذ ستين سنة. فأُتِيَ في منامه. فقيل له: إن فلاناً الإسكافي خير منك ـ ليلة بعد ليلة ـ فأتى الإسكافي، فسأله عن عمله. فقال: إني رجل لا يكاد يمر بي أحد إلا ظننت أنه في الجنة وأنا في النار، ففضل على الراهب بإزْرائه على نفسه.

وذكر داود الطائي عند بعض الأمراء. فأثنوا عليه، فقال: لو يعلم الناس بعض ما نحن عليه ما ذلّ لنا لسان بذكر خير أبداً.

وقال أبو حفص: من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها إلى مكروهها في سائر أوقاته؛ كان مغروراً،

ومن ينظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها.

فالنفس داعية إلى المهالك، معينة للأعداء، طامحة إلى كل قبيح، متبعة لكل سوء، فهي تجري بطبعها في ميدان المخالفة.

فالنعمة التي لا خطر لها: الخروج منها، والتخلص من رقها، فإنها أعظم حجاب بين العبد وبين الله، وأعرف الناس بها أشدهم إزراء عليها، ومقتاً لها.

قال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا المقدسي، حدثنا عامر بن صالح عن أبيه عن ابن عمر: أن عمر بن الخطاب قال: اللهم اغفر لي ظلمي وكفري، فقال قائل: يا أمير المؤمنين، هذا الظلم، فما بال الكفر؟ قال: إن الإنسان لظلوم كفار.

قال: وحدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، عن الصلت بن دينار، حدثنا بقية بن صهبان الهنائي قال: سألت عائشة عن قول الله عزَّ وجلّ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر: ٣٢]، فقالت: يا بنيّ، هؤلاء في الجنة، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ شهد له رسول الله ﷺ بالجنة والرزق، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم، فجعلتْ نفسها معنا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج حدثنا شريك عن عاصم عن أبي وائل عن مسروق، قال: دخل عبد الرحمن على أم سلمة فقالت: سمعت النبي ﷺ يقول: (إنَّ مِنْ أَصْحَابي مَنْ لا يَرَاني بَعْدَ أَنْ أَمُوتَ أَبداً فَخَرَجَ عَبْدُ الرَّحْمنِ مِنْ عِنْدَهَا مَذْعُوراً، حَتَّى أَتَاهَا فَدَخَلَ عَلَيْهَا، فَسَألَهَا، ثُمَّ قَالَ: أَنْشُدُكِ بالله، أمِنْهُمْ أنَا؟ قالتْ: لا، وَلَنْ أبَرِىءَ بَعْدَكَ أحَداً)[١].

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ٦/ ٢٩٨.

فسمعت شيخنا يقول: إنما أرادت: أني لا أفتح عليَّ هذا الباب، ولم ترد أنك وحدك البريء من ذلك دون سائر الصحابة.

[مقت النفس في ذات الله]:

ومقت النفس في ذات الله من صفات الصديقين، ويدنو العبد به من الله سبحانه في لحظة واحدة أضعاف أضعاف ما يدنو به بالعمل.

ذكر ابن أبي الدنيا عن مالك بن دينار، قال: إن قوماً من بني إسرائيل كانوا في مسجد لهم في يوم عيد، فجاء شاب حتى قام على باب المسجد، فقال: ليس مثلي يدخل معكم، أنا صاحب كذا، أنا صاحب كذا، يزري على نفسه، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: أن فلاناً صديق.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن الحسن بن أنس، حدثنا منذر، عن وهب: أن رجلاً سائحاً عبد الله عز وجل سبعين سنة، ثم خرج يوماً فقَلَّل عمله وشكا إلى الله منه، واعترف بذنبه فأتاه آتٍ من الله فقال: إن مجلسك هذا أحب إليّ من عملك فيما مضى من عمرك.

قال الإمام أحمد: وحدثنا عبد الصمد، حدثنا أبو هلال، حدثنا قتادة قال: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: سلوني، فإني ليِّن القلب، صغير عند نفسي.

وذكر أحمد أيضاً، عن عبد الله بن رباح الأنصاري، قال: كان داود ينظر أغْمص حَلْقَةٍ في بني إسرائيل فيجلس بين ظهرانيهم، ثم يقول: يا رب مسكين بين ظهراني مساكين.

وذكر عن عمران بن موسى القصير قال: قال موسى: يا رب، أين أبغيك؟ قال: ابغني عند المنكسرة قلوبهم، فإني أدنو منهم كل يوم باعاً، ولولا ذلك انهدموا.

وفي كتاب (الزهد) للإمام أحمد: أن رجلاً من بني إسرائيل تعبد ستين سنة في طلب حاجة، فلم يظفر بها، فقال في نفسه: والله لو كان فيك خير لظفرت بحاجتك، فأتي في منامه، فقيل له: أرأيت ازدراءك نفسَك تلك الساعة؟ فإنه خير من عبادتك تلك السنين.

[معرفة حق الله تعالى]:

ومن فوائد محاسبة النفس: أنه يعرف بذلك حق الله عليه. ومن لم يعرف حق الله عليه، فإن عبادته لا تكاد تُجدي عليه، وهي قليلة المنفعة جداً.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا جرير بن حازم، عن وهب قال: بلغني أن نبي الله موسى عليه السلام مر برجل يدعو ويتضرع، فقال: يا رب!! ارحمه، فإني قد رحمته فأوحى الله إليه: لو دعاني حتى تنقطع قواه ما استجبت له حتى ينظر في حقي عليه.

فمن أنفع ما للقلب النظر في حق الله على العبد، فإن ذلك يورثه مقت نفسه، والإزراء عليها ويخلصه من العجب ورؤية العمل، ويفتح له باب الخضوع والذل والانكسار بين يدي ربه، واليأس من نفسه، وأن النجاة لا تحصل له إلا بعفو الله، ومغفرته ورحمته.

فإن من حق الله أن يُطَاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر.

فمن نظر في هذا الحق الذي لربه عليه عِلِم عِلْم يقين أنه غير مؤد له العبودية كما ينبغي، وأنه لا يسعه إلا العفو والمغفرة، وأنه إن أحيل على عمله هلك.

فهذا محل نظر أهل المعرفة بالله وبنفوسهم، وهذا الذي أيأسهم من أنفسهم، وعلق رجاءهم كله بعفو الله ورحمته.

وإذا تأملت حال أكثر الناس وجدتهم بضد ذلك، ينظرون في حقهم على الله، ولا ينظرون في حق الله عليهم. ومن ههنا انقطعوا عن الله، وحجبت قلوبهم عن معرفته ومحبته والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره، وهذا غاية جهل الإنسان بربه وبنفسه.

فمحاسبة النفس:

هي نظر العبد في حق الله عليه أوّلاً.

ثم نظره: هل قام به كما ينبغي ثانياً.

وأفضل الفكرِ الفكرُ في ذلك، فإنه يُسَيِّر القلب إلى الله، ويطرحه بين يديه ذليلاً، خاضعاً منكسراً كسراً فيه جبره، ومفتقراً فقراً فيه غناه، وذليلاً ذلاً فيه عزه، ولو عمل من الأعمال ما عساه أن يعمل، فإنه إذا فاته هذا، فالذي فاته من البر أفضل من الذي أتى به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن القاسم، حدثنا صالح المري، عن أبي عمران الجَوْني، عن أبي الجلد: أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: وإذا ذكرتني فاذكرني وأنت تنتفض أعضاؤك، وكن عند ذكري خاشعاً مطمئناً، وإذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك، وإذا قمت بين يديّ فقم مقام العبد الحقير الذليل، وذم نفسك فهي أولى بالذم، وناجني حين تناجيني بقلب وَجِل ولسان صادق.

ومن فوائد نظر العبد في حق الله عليه أنه لا يتركه ذلك يدِلُّ بعمل أصلاً، كائناً ما كان، ومن أدلَّ بعمله لم يصعد إلى الله، كما ذكر الإمام أحمد عن بعض أهل العلم بالله أنه قال له رجل: إني لأقوم في صلاتي فأبكي حتى يكاد ينبت البقْل من دموعي. فقال له: إنك إن تضحك وأنت تعترف لله بخطيئتك خير من أن تبكي وأنت تدل بعملك؛ فإن صلاة المدل لا تصعد فوقه.

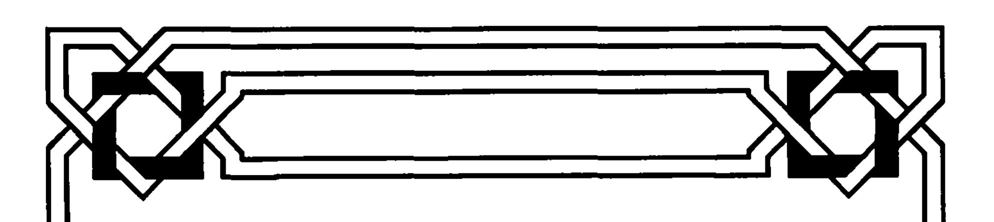
فقال له: أوصني. قال: عليك بالزهد في الدنيا وأن لاتنازعها أهلها، وأن تكون كالنّحلة، إن أكلت أكلت طيباً، وإن وضعت وضعت طيباً، وإن وقعت على عود لم تضره ولم تكسره، وأوصيك بالنصح لله عزَّ وجلّ نصح الكلب لأهله، فإنهم يجيعونه ويطردونه ويأبى إلا أن يحوطهم وينصحهم.

ومن ها هنا أخذ الشاطبي قوله: وقد قيل:

كُنْ كَالْكَلْبِ يُقْصِيهِ أَهْلُهُ ... ولا يَأْتَلِ في نُصْحِهِم مُتَبَذِّلا

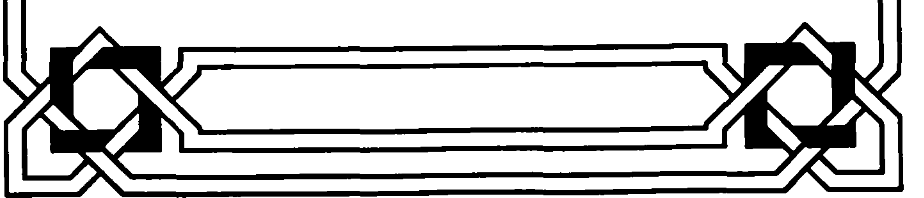
وقال الإمام أحمد: حدثنا سيار، حدثنا جعفر، حدثنا الجُرَيري، قال: بلغني أن رجلاً من بني إسرائيل كانت له إلى الله حاجة، فتعبد واجتهد، ثم طلب إلى الله حاجته، فلم ير نجاحاً، فبات ليلة مزرياً على نفسه، وقال: يا نفس، ما لكِ لا تقضي حاجتك؟ فبات محزوناً قد أزري على نفسه وألزم نفسه، فقال: أما والله ما من قبَلِ ربي أُتيت، ولكن من قِبَلِ نفسي أتيت، فبات ليله مزرياً على نفسه، وألزمها الملامة، فقضيت حاجته.

* * *



الباب الخامس

الوقاية من تسلّط الشّيطان على القلب



الفصل الأول

علاج مرض القلب بالشيطان

[دائرة تسلط الشيطان على العبد][1]:

إن الله سبحانُه بحكمَتهِ سلَّطَ على العَبدِ عَدُوّاً عالماً بطرقِ هلاكهِ وأسبابِ الشـرِّ الذي يُلقيهِ فيـه مُتفنِّناً فيها، خَبيـراً بها، حَريصاً عليها، لا يفترُ عنه يقظَـةً ولا مناماً، ولا بدَّ لهُ من واحدةٍ من ستٍّ ينالُها منه:

إحداها ـ وهي غايةُ مرادهِ منه ـ: أن يَحُولَ بينه وبينَ العلمِ والإيمانِ، فيُلقيَهُ في الكُفرِ؛ فإذا ظفِرَ بذلكَ فرغَ منه واستراحَ.

فإنْ فاتَتْهُ هذه، وهُديَ للإسلامِ حَرِصَ على تلوِ الكفرِ، وهي البِدعَةُ ـ وهي أحبُّ إليهِ من المعصيَةِ؛ فإنَّ المَعصيَةَ يُتابُ منها، والبدعَةُ لا يُتابُ منها ـ؛ لأنَّ صاحبَها يرى أنَّهُ على هُدىً.

وفي بَعضِ الآثـارِ: يقولُ إبليسُ: أهلكتُ بني آدمَ بالذُّنوبِ، وأهلكوني بالاستغفار وبلا إلـهَ إلا الله، فلمَّا رأيتُ ذلكَ بثَثْتُ فيهم الأهواءَ، فهم يُذنبونَ ولا يتوبونَ، لأنَّهُم يَحسَبُونَ أنَّهُم يُحسِنونَ صُنعاً.

فإذا ظفِرَ منه بهذهِ صيَّرهُ من رُعاتِه وأُمرائِه.

فإنْ أعجَزَتهُ ألقاهُ في الثالثة؛ وهي الكبائرُ.

فإنْ أعجَزَته ألقاه في اللَّمَم؛ وهي الرابعة، وهي الصغائر.

---

(١) جاءت هذه الفقرة في كتاب (مفتاح دار السعادة): ١/ ٣٧٢.

فإنْ أعجزَتْهُ شغَلَهُ بالعَملِ المفضولِ عمَّا هو أفضلُ منه لِيُرْتِجَ[1] عليه الذي بينهما؛ وهي الخامسةُ.

فإنْ أعجزَهُ ذلكَ صارَ إلى السَّادسَة؛ وهي تَسليطُ حزبِه عليه يُؤذونَهُ ويشتِمونَهُ ويبهتونَهُ ويرمونَهُ بالعظائمِ؛ ليحزنَهُ ويشغَلَ قلبهُ عن العلمِ والإرادَةِ وسائرِ أعمالهِ.

فكيفَ يُمكنُ أن يحترزَ منه مَن لا علمَ له بهذه الأمور ولا بعدوِّهِ، ولا بما يُحصِّنُهُ منهُ؟ فإنَّهُ لا يَنجو من عَدوِّهِ إلا مَن عَرَفَ طريقَه التي يأتيهِ منها وجيشَه الذي يستعينُ به عليهِ، وعَرَفَ مداخلَهُ ومخارجَهُ، وكيفيَّةَ محاربتهِ، وبأيِّ شيءٍ يحاربهُ، وبماذا يُداوي جراحتَهُ، وبأيِّ شيءٍ يستمدُّ القوَّةَ لقتالهِ ودفعهِ؟!.

وهذا كلُّهُ لا يَحصُلُ إلا بالعلمِ، فالجاهلُ في غفلةٍ وعمىً عن هذا الأمرِ العَظيمِ والخَطْبِ الجسيمِ.

ولهذا جاءَ ذِكْرُ هذا العدُوِّ وشأنهِ وجُنودهِ ومكايدهِ في القرآنِ كثيراً جدّاً؛ لحاجَةِ النُّفوسِ إلى معرفَةِ عدوِّها، وطرقِ محاربتهِ ومجاهدتهِ، فلولا أنَّ العلمَ يكشفُ عن هذا لما نجا مَن نجا منه، فالعلمُ وثَمَرَتُه هو الذي تحصُلُ به النَّجاةُ.

[خطر الشيطان أكبر من خطر النفس]:

هذا الباب من أهم أبواب الكتاب وأعظمها نفعاً، والمتأخرون من أرباب السلوك لم يعتنوا به اعتناءهم بذكر النفس وعيوبها وآفاتها، فإنهم توسعوا في ذلك، وقصروا في هذا الباب.

---

(١) أي ليغلق.

ومن تأمل القرآن والسنة وجد اعتناءهما بذكر الشيطان ومحاربته أكثر من ذكر النفس، فإن النفس المذمومة ذكرت في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: ٥٣] واللوامة في قوله: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: ٢]، وذكرت النفس المذمومة في قوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠].

فأما الشيطان فذُكر في عدة مواضع، وأفردت له سورة تامة[١]. فتحذير الرب تعالى لعباده منه جاء أكثر من تحذيره من النفس، وهذا هو الذي لا ينبغي غيره؛ فإن شر النفس وفسادها ينشأ من وسوسته، فهي مركَبُه وموضع شره، ومحل طاعته.

وقد أمر الله سبحانه بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن وغير ذلك، وهذا لشدة الحاجة إلى التعوذ منه.

ولم يأمر بالاستعاذة من النفس في موضع واحد، وإنما جاءت الاستعاذة من شرها في خطبة الحاجة في قوله: (ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا)[٢].

وقد جمع النبي ﷺ بين الاستعاذة من الأمرين في الحديث، الذي رواه الترمذي وصححه عن أبي هريرة: أن أبا بكر الصديق قال: يا رسول الله! علمني شيئاً أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت، قال: (قل: اللهم عالمَ الغيب والشهادة فاطر السماوات والأرض ربّ كل شيء ومليكه. أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشِرْكه، وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجُرَّه إلى مسلم، قُلْهُ إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك)[٣].

---

(١) لعلها سورة الفلق، كما قال الفقي.

(٢) أخرجه أبو داود (٢١١٨)؛ وغيره.

(٣) أخرجه أبو داود (٥٠٦٧)؛ والترمذي (٣٣٩٢).

فقد تضمن هذا الحديث الشريف الاستعاذة من الشر وأسبابه وغايته، فإن الشر كله إما أن يصدر من النفس أو من الشيطان، وغايته: إما أن يعود على العامل، أو على أخيه المسلم، فتضمن الحديث مصدري الشر اللذين يصدر عنهما، وغايتيه اللتين يصل إليهما.

[الاستعاذة بالله عند قراءة القرآن]:

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٨ ـ ١٠٠].

ومعنى (استعذ بالله) امتنع به واعتصم به والجأ إليه.

ومصدره الْعَوْذ، والْعِيَاذ، والْمَعَاذ، وغالب استعماله في المستعاذ به.

ومنه قول النبي ﷺ: (لقد عذتِ بِمَعاذ)[1] وأصل اللفظة: من اللجأ إلى الشيء والاقتراب منه، ومن كلام العرب «أطيب اللحم عُوذه» أي الذي قد عاذ بالعظم واتصل به. وناقة عائذ: يعوذ بها ولدها، وجميعها (عُوذ) كحُمُر.

ومنه في حديث الحُديبية: «معهم العُوذ المطافيل»[2] والمطافيل: جمع مُطْفِلٍ، وهي الناقة التي معها فصيلها.

قالت طائفة ـ منهم صاحب جامع الأصول ـ: استعار ذلك للنساء، أي معهم النساء وأطفالهم.

ولا حاجة إلى ذلك، بل اللفظ على حقيقته، أي قد خرجوا إليك

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٢٥٥).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٢٧٣١).

بدوابهم ومراكبهم حتى أخرجوا معهم النوق التي معها أولادها .

فأمر سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن. وفي ذلك وجوه :

منها : أن القرآن شفاء لما في الصدور يُذْهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أمَرَّه فيها الشيطان، فأمر أن يطرد مادة الداء ويُخلي منه القلب ليصادف الدواءُ محلاً خالياً، فيتمكَّن منه، ويؤثر فيه، كما قيل :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

فيجيء هذا الدواء الشافي إلى قلب قد خلا من مزاحم ومُضادٍّ له فينجع فيه .

ومنها : أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة النبات، والشيطان نار يحرق النبات أوّلاً فأولاً ، فكلما أحس بنبات الخير في القلب سعى في إفساده وإحراقه ، فأمر أن يستعيذ بالله منه لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن .

والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله؛ أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن، وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها وثباتها .

وكأن من قال : إن الاستعاذة بعد القراءة لاحَظَ هذا المعنى، وهو لعَمْرُ الله مَلْحَظ جيد، إلا أن السنة وآثار الصحابة إنما جاءت بالاستعاذة قبل الشروع في القراءة. وهو قول جمهور الأمة من السلف والخلف، وهو محصّلة للأمرين .

ومنها : أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن وتستمع لقراءته، كما في

حديث أُسَيد بن حُضَير لما كان يقرأ ورأى مثلَ الظُّلَّة فيها مثل المصابيح، فقال النبي ﷺ: (تلك الملائكة)[1] والشيطان ضد الملَك وعدوُّه. فأمر القارئ أن يطلب من الله مباعدة عدوه عنه حتى يحضره خاصته وملائكته، فهذه وليمة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين.

ومنها: أن الشيطان يُجْلِب على القارئ بخيله ورَجْله، حتى يشغله عن المقصود بالقرآن. وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن؛ فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله منه.

ومنها: أن القارئ مناج لله بكلامه. (والله تعالى أشد أَذَناً للقارئ الحسن الصوت بالقرآن من صاحب الْقَيْنَة إلى قينته)[2] والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء، فأمر القارئ أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاته واستماع قراءته.

ومنها: أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته، والسلف كلهم على أن المعنى: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته. كما قال الشاعر في عثمان.

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ ... وَآخِرَهُ لاقَى حِمَامَ المَقَادِرِ

فإذا كان هذا فعله مع الرسل فكيف بغيرهم؟.

ولهذا يغلِّط القارئ تارة ويخلط عليه القراءة، ويشوشها عليه، فيخبط عليه لسانه، أو يشوش عليه فهمه وقلبه، فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارئ هذا، أو هذا؛ وربما جمعهما له، فكان من أهم الأمور: الاستعاذة بالله منه عند القراءة.

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً برقم (٥٠١٨)؛ ومسلم (٧٩٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه برقم (١٣٤٠) ومعنى أذناً: أي سماعاً.

ومنها: أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهُمُّ بالخير، ويدخل فيه. فهو يشتد عليه حينئذٍ ليقطعه عنه، وفي الصحيح عنه ﷺ: (إن شيطاناً تَفَلَّتَ عليّ البارحة، فأراد أن يقطع عليّ صلاتي) ـ الحديث[1] وكلّما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله كان اعتراض الشيطان له أكثر.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث سَبْرة بن أبي الفاكه أنه سمع النبي ﷺ يقول: (إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتُسْلِم وَتَذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك، فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتَذَر أرضك وسماءك؟ وإنما مثل المهاجر كالفَرَسِ في الطِّوَل، فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد ـ وهو جهاد النفس والمال فقال: تقاتل فتُقتل، فتنكح المرأة ويُقسم المال؟ قال فعصاه فجاهد)[2].

فالشيطان بالرصد للإنسان على طريق كل خير.

وقال منصور عن مجاهد: ما من رفقةٍ تخرج إلى مكة إلا جهز معهم إبليس مثل عِدَّتِهم. رواه ابن أبي حاتم في تفسيره.

فهو بالرصد، ولا سيما عند قراءة القرآن، فأمر سبحانه العبد أن يحارب عدوه الذي يقطع عليه الطريق ويستعيذ بالله منه أولاً، ثم يأخذ في السير، كما أن المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه، ثم اندفع في سيره.

ومنها: أن الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتيّ به بعدها القرآن، ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدي كلام غيره، بل الاستعاذة مقدمة وتنبيه للسامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة، فإذا سمع السامع الاستعاذة

---

(١) متفق عليه (خ٤٦١، م٥٤١).

(٢) أخرجه النسائي برقم (٣١٣٤).

استعد لاستماع كلام الله، ثم شُرع ذلك للقارئ، وإن كان وحده، لما ذكرنا من الحكَمِ وغيرها.

فهذه بعض فوائد الاستعاذة.

وقال أحمد في رواية حنبل: لا يقرأ في صلاة ولا غير صلاة، إلا استعاذ؛ لقوله عزَّ وجلّ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨].

وقال في رواية ابن مشيش: كلما قرأ يستعيذ(١).

---

(١) استطرد المؤلف ـ رحمه الله ـ هنا بمناسبة الحديث عن الاستعاذة ليتحدث عن صيغة الاستعاذة، فقال:

قال عبد الله بن أحمد: سمعت أبي إذا قرأ استعاذ، يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم.

وفي (المسند) والترمذي من حديث أبي سعيد الخدري قال: كان النبي ﷺ إذا قام إلى الصلاة استفتح ثم يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم: من هَمْزِهِ ونَفْخِهِ ونَفْثِهِ».

وقال ابن المنذر: جاء عن النبي ﷺ أنه كان يقول قبل القراءة: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

واختار الشافعي وأبو حنيفة والقاضي في (الجامع) أن يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» وهو رواية عن أحمد؛ لظاهر الآية، وحديث ابن المنذر.

وعن أحمد من رواية عبد الله: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم» لحديث أبي سعيد، وهو مذهب الحسن وابن سيرين.

ويدل عليه ما رواه أبو داود في قصة الإفْكِ: أن النبي ﷺ جلس وكشف عن وجهه وقال: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم».

وعن أحمد رواية أخرى أنه يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم» وبه قال سفيان الثوري ومسلم بن يَسار، واختاره القاضي في (المجرد) وابن عقيل، لأن قوله: ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ ظاهره أنه يستعيذ بقوله: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». وقوله في الآية الأخرى: ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ يقتضي أن يلحق بالاستعاذة وصفه بأنه هو السميع العليم في جملة مستقلة بنفسها مؤكدة بحرف (إن) لأنه سبحانه هكذا ذكر. =

[الاستعاذة من شياطين الإنس والجن]:

وقال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧ ـ ٩٨].

والهمزات: جمع همزة كتمرات وتمرة. وأصل الهمز الدفع.

قال أبو عبيد عن الكسائي: همزته، ولَمَزْتُه، وَلَهَزته، ونهزته إذا دفعته.

والتحقيق: أنه دفع بنَخْز وغَمْز يشبه الطعن، فهو دفع خاص، فهمزات الشياطين: دفعهم الوساوس والإغواء إلى القلب.

قال ابن عباس والحسن: همزات الشياطين: نزغاتهم ووساوسهم.

وفسرت همزاتهم بنفخهم ونفثهم، وهذا قول مجاهد.

وفسرت بخنقهم وهو الموتة التي تشبه الجنون.

وظاهر الحديث أن الهمز نوع غير النفخ والنفث.

وقد يقال ـ وهو الأظهر ـ: إن همزات الشياطين إذا أفردت دخل فيها جميع إصاباتهم لابن آدم، وإذا قرنت بالنفخ والنفث كانت نوعاً خاصاً، كنظائر ذلك.

ثم قال: ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾.

قال ابن زيد: في أموري.

= وقال إسحاق: الذي أختاره ما ذكر عن النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من هَمْزه ونفخه ونَفْثِه».

وقد جاء في الحديث تفسير ذلك، قال: «وهمزه المُوتَةُ، ونفخه: الكِبْر، ونفثه: الشعر».

وقال الكلبي: عند تلاوة القرآن.

وقال عكرمة: عند النزع.

فأمره أن يستعيذ من نوعي شَرِّ هَمِّ إصابتهم له بالهمز وقربهم ودنوّهم منه.

فتضمنت الاستعاذة أن لا يمسوه ولا يقربوه.

وذكر ذلك سبحانه عقب قوله: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٦] فأمره أن يحترز من شر شياطين الإنس بدفع إساءتهم إليه بالتي هي أحسن، وأن يدفع شر شياطين الجن بالاستعاذة منهم.

ونظير هذا قوله في الأعراف: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] فأمره بدفع شر الجاهلين بالإعراض عنهم، ثم أمره بدفع شر الشيطان بالاستعاذة منه فقال: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

ونظير ذلك قوله في سورة فصلت ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤].

فهذا لدفع شر شياطين الإنس ثم قال: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦][1].

---

(١) استطرد هنا المؤلف ـ رحمه الله ـ وانتقل لبيان الفرق بين ختام كل من آيتي فصلت والأعراف، فقال:

وقال ها هنا: «إنه هو السميع العليم» فأكد بإنّ، وبضمير الفصل، وأتى باللام في «السميع العليم».

وقال في الأعراف: ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

وسر ذلك ـ والله أعلم ـ أنه حيث اقتصر على مجرد الاسم ولم يؤكده أريد إثبات مجرد الوصف الكافي في الاستعاذة والإخبار، إنه سبحانه يسمع ويعلم، فيسمع =

= استعاذتك فيجيبك ويعلم ما تستعيذ منه فيدفعه عنك، فالسمع لكلام المستعيذ والعلم بالفعل المستعاذ منه، وبذلك يحصل مقصود الاستعاذة، وهذا المعنى شامل للموضعين.

وامتاز المذكور في فصلت بمزيد التأكيد والتعريف والتخصيص؛ لأن سياق ذلك بعد إنكاره سبحانه على الذين شكوا في سمعه لقولهم وعلمه بهم.

كما ثبت في (الصحيحين) من حديث ابن مسعود، قال: «اجتمع عند البيت ثلاثة نفر قرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، كثيرٌ شحمُ بطونهم، قليلٌ فقه قلوبهم، فقالوا: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال أحدهم: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن يسمع بعضه سمعه كله، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٢-٢٣] متفق عليه.

فجاء التأكيد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ في سياق هذا الإنكار: أي هو وحده الذي له كمال قوة السمع وإحاطة العلم، لا كما يظن به أعداؤه الجاهلون: أنه لا يسمع إن أخفوا وأنه لا يعلم كثيراً مما يعملون، وحَسَّنَ ذلك أيضاً: أن المأمور به في سورة فصّلت دفع إساءته إليه بإحسانه إليهم، وذلك أشق على النفوس من مجرد الإعراض عنهم ولهذا عقبه بقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥] فحسن التأكيد لحاجة المستعيذ.

وأيضاً فإن السياق ههنا لإثبات صفات كماله وأدلة ثبوتها وآيات ربوبيته وشواهد توحيده ولهذا عقب ذلك بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ [فصلت: ٣٧] وبقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩] فأتى بأداة التعريف الدالة على أن من أسمائه (السميع العليم) كما جاءت الأسماء الحسنى كلها معرّفة، والذي في الأعراف في سياق وعيد المشركين وإخوانهم من الشياطين ووعد المستعيذ بأن له ربّاً يسمع ويعلم، وآلهة المشركين التي عبدوها من دونه ليس لهم أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها، فالله سميع عليم، وآلهتهم لا تسمع ولا تبصر ولا تعلم، فكيف يُسَوُّونها به في العبادة؛ فعلمت أنه لا يليق بهذا السياق غير التنكير، كما لا يليق بذلك غير التعريف، والله أعلم بأسرار كلامه.

ولما كان المستعاذ منه في سورة (حم المؤمن) هو شر مجادلة الكفار في آياته وماترتب عليها من أفعالهم المرئيّة بالبصر قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]، فإنه لما كان المستعاذ منه كلامهم وأفعالهم المشاهدة عياناً قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وهناك المستعاذ منه غير مشاهد لنا، فإنه يرانا هو وقَبِيلُه من حيث لا نراه. بل هو معلوم بالإيمان وإخبار الله ورسوله.

[لا بد من الصبر مع الاستعاذة]:

فالقرآن أرشد إلى دفع هذين العدوّين[1] بأسهل الطرق: بالاستعاذة والإعراض عن الجاهلين، ودفع إساءتهم بالإحسان.

وأخبر عن عظم حظ من لَقَّاه ذلك فإنه ينال بذلك كفّ شر عدوه وانقلابه صديقاً، ومحبة الناس له، وثناءهم عليه، وقهر هواه، وسلامة قلبه من الغِلّ والحقد وطمأنينة الناس ـ حتى عدوه ـ إليه.

هذا غير ما يناله من كرامة الله وحسن ثوابه ورضاه عنه؛ وهذا غاية الحظ عاجلاً وآجلاً.

ولما كان ذلك لا يُنال إلا بالصبر قال: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ [فصلت: ٣٥]، فإن النَّزِق الطائش لا يصبر على المقابلة.

ولما كان الغضب مركب الشيطان، فتتعاون النفس الغضبية والشيطان على النفس المطمئنة التي تأمر بدفع الإساءة بالإحسان ـ أمر أن يعاونها بالاستعاذة منه، فتُمِدّ الاستعاذة النفس المطمئنة فتقوى على مقاومة جيش النفس الغضبية، ويأتي مدد الصبر الذي يكون النصر معه، وجاء مدد الإيمان والتوكل، فأبطل سلطان الشيطان، فـ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٩٩].

[معنى ﴿ليس له سلطان على الذين آمنوا﴾]:

قال مجاهد وعكرمة والمفسرون: ليس له حجة.

والصواب: أن يقال: ليس له طريق أن يتسلط به عليهم: لا من جهة الحجة، ولا من جهة القدرة. فالقدرة داخلة في مسمى السلطان، وإنما سميت الحجة سلطاناً، لأن صاحبها يتسلط بها تسلط صاحب القدرة بيده.

وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين،

---

(١) العدوّان هما: النفس الوارد ذكرها في الباب السابق، والشيطان الذي هو موضوع الحديث في هذا الباب.

فقال في سورة الحجر: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٣٩ـ٤٢].

وقال في سورة النحل: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩ـ١٠٠].

تضمن ذلك أمرين:

أحدهما: نفي سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص.

والثاني: إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاّه.

ولما علم عدو الله أن الله لا يُسَلِّطه على أهل التوحيد والإخلاص ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة صَ: ٨٢ـ٨٣].

فعلم عدو الله أن من اعتصم بالله وأخلص له وتوكل عليه لا يقدر على إغوائه وإضلاله، وإنما يكون له السلطان على من تولاّه وأشرك مع الله، فهؤلاء رَعِيَّته وهو سلطانهم ومتبوعهم.

• • •

فإن قيل: فقد أثبت له السلطان على أوليائه في هذا الموضع، فكيف ينفيه في قوله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ [سبأ: ٢٠ـ٢١].

قيل: إن كان الضمير في قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ [سبأ: ٢١] عائداً على المؤمنين فالسؤال ساقط، ويكون الاستثناء منقطعاً:

أي لكن امتحنّاهم بإبليس، لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك.

وإن كان عائداً على ما عاد عليه في قوله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ ﴾ [سبأ: ٢٠] وهو الظاهر، ليصحّ الاستثناء المنقطع بوقوعه بعد النفي، ويكون المعنى: وما سلّطناه عليهم إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة.

قال ابن قُتيبة: إن إبليس لما سأل الله النَظْرَة فأنْظَره قال: لأغْوِيَنّهُمْ ولأضِلّنهم ولآمرنهم بكذا، ولأتخذنَّ من عبادك نصيباً مفروضاً، وليس هو في وقت هذه المقالة مستيقناً أن ما قدّره فيه يتمّ، وإنما قاله ظاناً، فلما اتبعوه وأطاعوه صَدّق عليهم ما ظنه فيهم، فقال تعالى: وما كان تسليطنا إياه إلا لنعلم المؤمنين من الشاكّين، يعني نعلمهم موجودين ظاهرين فيحق القول ويقع الجزاء.

على هذا: فيكون السلطان ههنا على من لم يؤمن بالآخرة وشكَّ فيها، وهم الذين تولوه وأشركوه به فيكون السلطان ثابتاً لا منفياً، فتتفق هذه الآية مع سائر الآيات.

• • •

فإن قيل: فما تصنع بالتي في سورة إبراهيم حيث يقول لأهل النار: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وهذا وإن كان قَوْلَه فإنه سبحانه أخبر به عنه مُقَرِّراً له، لا منكراً، يدل على أنه كذلك.

قيل: هذا السؤال جيد. وجوابه: أن السلطان المنفي في هذا الموضع: هو الحجة والبرهان، أي ما كان لي عليكم من حجة وبرهان أحتج به عليكم، كما قال ابن عباس: ما كان لي حجة أحتج بها عليكم أي: ما أظهرت لكم حجة إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، وصدّقتم مقالتي، واتبعتموني بلا برهان ولا حجة.

وأما السلطان الذي أثبته في قوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ [النحل: ١٠٠]، فهو تَسلُّطه عليهم بالإغواء والإضلال، وتمكنه منهم، بحيث يؤزُّهم إلى الكفر والشرك ويُزعجهم إليه، ولا يَدَعُهم يتركونه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

قال ابن عباس: تُغْريهم إغراء.

وفي رواية: تُشليهم إشلاء.

وفي لفظ: تحرضهم تحريضاً.

وفي آخر: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً.

وفي آخر: توقدهم أي تحركهم كما يحرك الماء بالإيقاد تحته.

قال الأخفش: توهجهم.

وحقيقة ذلك: أن (الأزّ) هو التحريك والتهييج، ومنه يقال لغليان القدر: الأزيز؛ لأن الماء يتحرّك عند الغليان.

ومنه الحديث: (لجوفه أزيز كأزيز المرْجَل من البكاء)[1].

قال أبو عبيدة (الأزيز): الالتهاب والحركة، كالتهاب النار في الحطب، يقال: إزّ قِدْرك، أي ألهب تحتها بالنار، وائتزت القدر إذا اشتد غليانها.

فقد حصل للأزّ، معنيان:

أحدهما: التحريك.

والثاني: الإيقاد والإلهاب.

وهما متقاربان، فإنه تحريك خاص بإزعاج وإلهاب.

---

(١) أخرجه أبو داود (٩٠٤).

فهذا من السلطان الذي له على أوليائه وأهل الشرك، ولكن ليس له على ذلك سلطان حجة وبرهان، وإنما استجابوا له بمجرد دعوته إياهم، لما وافقت أهواءهم وأغراضهم، فهم الذين أعانوا على أنفسهم ومكَّنوا عدوهم من سلطانه عليهم، لموافقته ومتابعته، فلما أعطوا بأيديهم واستأسروا له سُلِّط عليهم عقوبة لهم.

وبهذا يظهر معنى قوله سبحانه: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

فالآية على عمومها وظاهرها، وإنما المؤمنون يصدر منهم من المعصية والمخالفة التي تضادُّ الإيمان ما يصير به للكافرين عليهم سبيل بحسب تلك المخالفة، فهم الذين تَسَبّبوا إلى جعل السبيل عليهم، كما تَسبّبوا إليه يوم أحد بمعصية الرسول ومخالفته.

والله سبحانه لم يجعل للشيطان على العبد سلطاناً، حتى جعل له العبد سبيلاً إليه بطاعته والشرك به، فجعل الله حينئذ له عليه تسلّطاً وقَهراً.

فمن وجد خيراً فليَحْمَد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنّ إلا نفسه.

فالتوحيد والتوكل والإخلاص يمنع سلطانه، والشرك وفروعه يوجب سلطانه، والجميع بقضاء مَنْ أَزِمَّة الأمور بيده، ومَرَدُّها إليه، وله الحجة البالغة؛ فلو شاء لجعل الناس أمة واحدة، ولكن أبتْ حِكمته وحمده وملكه إلا ذلك.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٣٦ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٦ـ٣٧].

* * *

الفصل الثاني

ما يعتصم به العبد من الشيطان

قال ابن القيم رحمه الله :

قاعدة نافعة فيما يعتصم به العبد من الشيطان، ويستدفع به شره، ويحترز به منه[1] . وذلك عشرة أسباب

أحدها : الاستعاذة بالله من الشيطان[2] .

الحرز الثاني: قراءة هاتين السورتين[3] فإن لهما تأثيراً عجيباً في الاستعاذة بالله من شره ودفعه والتحصن منه . ولهذا قال النبي ﷺ : (ما تعوذ المتعوذون بمثلهما)[4] وكان ﷺ يتعوذ بهما كل ليلة عند النوم[5]، وأمر عقبة أن يقرأ بهما دبر كل صلاة[6] . وقال ﷺ : (إن من قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثاً حين يمسي وثلاثاً حين يصبح كفته من كل شيء)[7] .

الحرز الثالث: قراءة آية الكرسي ، ففي (الصحيح) من حديث محمد ابن سيرين عن أبي هريرة قال: «وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان،

---

(١) جاء هذا الموضوع في كتاب (بدائع الفوائد) : ٢/ ٢٦٧ وما بعدها .

(٢) سبق تفصيل هذا الموضوع في الفصل السابق .

(٣) المراد بهما : المعوذتان : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ .

(٤) رواه النسائي (٥٤٥٣)؛ والدارمي (٣٤٤٠) .

(٥) رواه البخاري من حديث عائشة (٥٠١٧) .

(٦) رواه أبو داود (١٥٢٣)؛ والترمذي والنسائي .

(٧) رواه أبو داود (٥٠٨٢)؛ والترمذي والنسائي .

فأتى آتٍ، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته فقلت لأرفعنـك إلى رسول الله ﷺ. فذكر الحديث فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي ﷺ: (صدقك وهو كذوب ذاك الشيطان)[١].

الحرز الرابع: قراءة سـورة البقرة، ففي (الصحيح) من حديث سـهل عن عبد الله عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وأن البيت الذي تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان)[٢].

الحرز الخامس: خاتمة سورة البقرة، فقد ثبت في (الصحيح) من حديث أبي موسى[٣] الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: (من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه)[٤].

وفي الترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: (إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق بألفي عام أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة فلا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان)[٥].

الحرز السادس: أول سورة حم المؤمن إلى قوله: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ مع آية الكرسي، ففي الترمذي من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر عن ابن أبي مليكة عن زرارة بن مصعب عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (من قرأ حم المؤمن إلى ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي، ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح)[٦]. وعبد الرحمن المليكي وإن كان قد تكلم فيه من قبل حفظه،

---

(١) رواه البخاري تعليقاً (٢٣١١).

(٢) رواه مسلم (٧٨٠).

(٣) هو في الصحيحين: عن أبي مسعود.

(٤) رواه البخاري (٤٠٠٨، ٥٠٥١)؛ ومسلم (٨٠٧، ٨٠٨).

(٥) رواه الترمذي (٢٨٨٢)؛ والدارمي (٣٣٨٧).

(٦) رواه الترمذي (٢٨٧٩)؛ والدارمي (٣٣٨٦).

فالحديث له شواهد في قراءة آية الكرسي وهو محتمل على غرابته.

الحرز السابع: لاإلـه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، مائة مرة، ففي (الصحيحين) من حديث سمي مولى أبي بكر عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (من قال لا إلـه إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير في يوم مئة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مئة حسنة، ومحيت عنه مئة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأتِ أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك)[1] فهذا حرز عظيم النفع، جليل الفائدة، يسير سهل على من يسره الله عليه.

الحرز الثامن: وهو من أنفع الحروز من الشيطان: كثرة ذكر الله عزَّ وجلّ

ففي الترمذي[2] من حديث الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال:

(إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وأنه كاد أن يبطئ بها، فقال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم، وإما أن آمرهم.

فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب.

فجمع الناس في بيت المقدس فامتلأ، وقعدوا على الشُّرف، فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن:

أوّلهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق فقال: هذه داري

---

(١) رواه البخاري (٣٢٩٣)؛ ومسلم (٢٦٩١).
(٢) رواه الترمذي (٢٨٦٣).

وهذا عملي فاعمل وأدّ إليّ، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك.

وأن الله أمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت.

وأمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فأوثقوا يده إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم.

وأمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله).

قال النبي ﷺ: (وأنا آمركم بخمس، الله أمرني بهن: السمع، والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة، فإن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع. ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثا[1] جهنم)، فقال رجل: يا رسول الله وإن صلى وصام، قال: (وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله).

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح. وقال البخاري: الحارث الأشعري له صحبة، وله غير هذا الحديث.

فقد أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث أن العبد لا يحرز نفسه من

---

(١) جثا: جمع جثوة، وهي الجماعة المحكوم عليها بالنار.

الشـيطان إلا بذكر الله، وهذا بعينه هو الذي دلت عليه سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس، والخناس الذي إذا ذكر العبد الله انخنس وتجمع وانقبض، وإذا غفل عن ذكر الله التقم القلبَ، وألقى إليه الوساوس التي هي مبادئ الشر كله، فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله عزَّ وجلّ.

الحرز التاسع: الوضوء والصلاة، وهذا من أعظم ما يتحرز به منه، ولا سيما عند توارد قوة الغضب والشهوة، فإنها نار تغلي في قلب ابن آدم، كما في الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: (ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى حمرة عينيه، وانتفاخ أوداجه، فمن أحس بشيء من ذلك فليلصق بالأرض)[1]. وفي أثر آخر: (إن الشيطان خلق من نار، وإنما تطفأ النار بالماء)[2] فما أطفأ العبد جمرة الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة فإنها نار، والوضوء يطفئها، والصلاة إذا وقعت بخشوعها والإقبال فيها على الله أذهبت أثر ذلك كله، وهذا أمر تجربته تغني عن إقامة الدليل عليه.

الحرز العاشر: إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس، فإن الشيطان إنما يتسلَّط على ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة[3].

[وخلاصة القول][4]:

كل ذي لب يعلم أنه لا طريق للشيطان عليه إلا من ثلاث جهات:

---

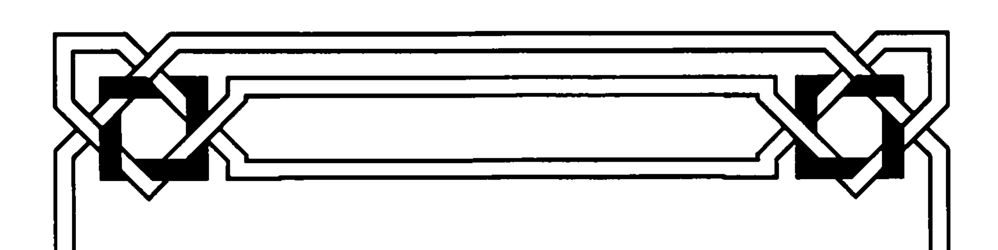
(١) رواه الترمذي (٢١٩١)؛ وابن ماجه (٤٠٠٠).
(٢) ضعفه الألباني (سلسلة الأحاديث الضعيفة: ٥٨٢).
(٣) سبق الحديث عن ذلك.
(٤) جاءت هذه الخلاصة في كتاب الفوائد، ص٣٣٤، ورقم الفائدة (١١٥).

أحدها: التزيُّد والإسراف، فيزيد على قدر الحاجة، فتصير فضلة، وهي حظ الشيطان ومدخله إلى القلب. وطريق الاحتراز منه، عدم إعطاء النفس تمام مطلوبها من غذاء، أو نوم، أو لذة، أو راحة، فمتى أغلقت هذا الباب، حصل الأمان من دخول العدو منه.

الثانية: الغفلة، فإن الذاكر في حصن الذكر، فمتى غفل فتح باب الحصن فولجه العدو، فيعسر عليه أو يصعب إخراجه.

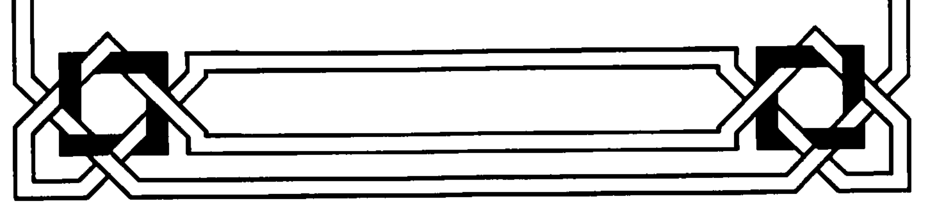
الثالثة: تكلف ما لا يعنيه من جميع الأشياء.

* * *



الباب السادس

أثر الفتن والمعاصي على القلوب



الفصل الأول

عرض الفتن على القلوب[1]

قال حُذيفة بن اليمان رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ:

(تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلوب كعَرْض الحصيرِ عُوداً عُوداً. فأيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَها نُكِتَتْ فيهِ نُكتةٌ سَوْدَاءُ، وأيُّ قَلبٍ أنْكرَهَا نُكِتَتْ فيهِ نُكْتةٌ بَيْضَاءُ، حتى تَعُودَ القُلوبُ عَلَى قَلْبين:

قَلْبٍ أسْود مُرْبَادًا[2] كالكُوزِ مُجَخِّياً[3]. لا يعْرِفُ معْرُوفاً ولا يُنْكِرُ مُنْكَراً، إلاَّ ما أُشْرِبَ منْ هَواهُ.

وَقَلْبٍ أبيضَ، لا تضُرُّهُ فِتْنةٌ مَا دامتِ السمواتُ والأرضُ)[4].

---

(١) جاء هذا الفصل في الباب الأول بحسب ترتيب المؤلف.

(٢) مرباداً: الربدة لون بين السواد والغبرة.

(٣) كالكوز مجخياً: أي مائلاً، أي كالكوز المائل الذي لا يثبت فيه الماء.

(٤) أخرجه مسلم برقم (١٤٤) ولفظه:

عن حذيفة؛ قال: كنا عند عمر. فقال: أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه. فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره؟ قالوا: أجل. قال: تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة. ولكن أيكم سمع النبي ﷺ يذكر الفتن التي تموج موج البحر؟ قال حذيفة: فأسكت القوم. فقلت: أنا. قال: لله أبوك! قال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير الفتن على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض. والآخر أسود مرباداً، كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكر. إلا ما أشرب من هواه».

فشبه عرض الفتن على القلوب شيئاً فشيئاً كعرض عيدان الحصير، وهي طاقاتها شيئاً فشيئاً.

وقسم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين:

قلبٌ إذا عرضت عليه فتنة أُشربها، كما يشرب السفنج الماء فتنكت فيه نكتة سوداء، فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسود وينتكس، وهو معنى قوله: «كالكوز مجخياً»، أي مكبوباً منكوساً، فإذا اسود وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطران مترامبان به إلى الهلاك:

- أحدهما: اشتباه المعروف عليه بالمنكر، فلا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، وربما استحكم فيه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والسنة بدعة والبدعة سنة، والحق باطلاً والباطل حقاً.

- الثاني: تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول ﷺ، وانقياده للهوى واتباعه له.

وقلبٌ أبيض: قد أشرق فيه نور الإيمان، وأزهر فيه مصباحه، فإذا عرضت عليه الفتن أنكرها وردها، فازداد نوره وإشراقه وقوته.

والفتن التي تعرض على القلوب، هي أسباب مرضها، وهي:

- فتن الشهوات.

- وفتن الشبهات، فتن الغي والضلال، فتن المعاصي والبدع، فتن الظلم والجهل.

فالأولى: توجب فساد القصد والإرادة.

والثانية: توجب فساد العلم والاعتقاد.

• • •

وقد قسم الصحابة، رضي الله عنهم، القلوب إلى أربعة، كما صح عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قوله:

«القلوب أربعة:

قلب أجرد، فيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن.

وقلب أغلف، فذلك قلب الكافر.

وقلب منكوس، فذلك قلب المنافق، عرف ثم أنكر، وأبصر ثم عمي.

وقلب تمده مادتان: مادة إيمان، ومادة نفاق، فهو لما غلب عليه منهما».

فقوله: «قلب أجرد» أي متجرد مما سوى الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ، فقد تجرد وسلم مما سوى الحق.

و«فيه سراج يزهر» وهو مصباح الإيمان: فأشار بتجرده إلى سلامته من شبهات الباطل وشهوات الغي، وبحصول السراج فيه إلى إشراقه واستنارته بنور العمل والإيمان.

وأشار بالقلب الأغلف: إلى قلب الكافر، لأنه داخل في غلافه وغشائه، فلا يصل إليه نور العلم والإيمان، كما قال تعالى، حاكياً عن اليهود:

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ [البقرة: ٨٨].

وهو جمع أغلف، وهو الداخل في غلافه، كغلف وأقلَف، وهذه الغشاوة هي الأكِنَّة التي ضربها الله سبحانه وتعالى على قلوبهم، عقوبة لهم على رد الحق والتكبر عن قبوله. فهي أكِنَّة على القلوب وَوَقْرٌ في الأسماع، وعمىً في الأبصار، وهي الحجاب المستور عن العيون في قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا

مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء ٤٥ ـ ٤٦].

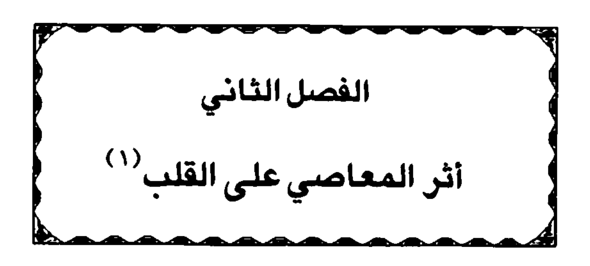
فإذا ذكر لهذه القلوب تجريد التوحيد وتجربة المتابعة، ولَّى أصحابها على أدبارهم نفوراً.

وأشار بالقلب المنكوس ـ وهو المكبوب ـ إلى قلب المنافق، كما قال تعالى: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ [النساء ٨٨]. أي نكسهم وردهم في الباطل الذي كانوا فيه، بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة.

وهذا شر القلوب وأخبثها، فإنه يعتقد الباطل حقاً ويوالي أصحابه، والحقَّ باطلاً ويعادي أهله، فالله المستعان.

وأشار بالقلب الذي له مادتان إلى القلب الذي لم يتمكن فيه الإيمان، ولم يزهر فيه سراجه، حيث لم يتجرد للحق المحض الذي بعث الله به سبحانه وتعالى رسوله ﷺ، فيه مادة منه ومادة من خلافه، فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان، وتارة يكون للإيمان أقرب منه للكفر. والحكم للغالب وإليه يرجع.

* * *



الفصل الثاني

أثر المعاصي على القلب[1]

للمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة، المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله. ومن ذلك:

[إضعاف تعظيم الرب تعالى]:

ومن (آثارها): أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جلَّ جلاله، وتضعف وقاره في قلب العبد ولابد، شاء أم أبى، ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرأ على معاصيه.

وربما اغترَّ المغترّ وقال: إنما يحملني على المعاصي حُسن الرجاء، وطمعي في عفوه، لا ضعف عظمته في قلبي، وهذا من مغالطة النفس، فإن عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد يقتضي تعظيم حرماته، وتعظيمُ حرماته يحول بينه وبين الذنوب، والمتجرئون على معاصيه ما قدروه حق قدره، وكيف يقدره حق قدره، أو يعظمه أو يكبره، أو يرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه؟ هذا من أمحل المحال، وأبين الباطل، وكفى بالعاصي عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله، وتعظيم حرماته ويهون عليه حقه.

ومن بعض عقوبة هذا: أن يرفع الله عزَّ وجلّ مهابته من قلوب الخلق،

---

(١) جاء هذا الموضوع في كتاب (الجواب الكافي)، ص١١٩ ـ ١٣٠.

فيهون عليهم، ويستخفون به كما هان عليه أمره واستخفَّ به، فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الناس، وعلى قدر تعظيمه لله وحرماته يعظم الناس حرماته، وكيف ينتهك عبد حرمات الله، ويطمع أن لاينتهك الناس حرماته؟ أم كيف يهون عليه حق الله ولا يهونه الله على الناس، أم كيف يستخف بمعاصي الله ولا يستخف به الخلق؟.

وقد أشار سبحانه إلى هذا في كتابه عن ذكر عقوبات الذنوب وأنه أركس أربابها بما كسبوا وغطى على قلوبهم، وطبع عليها بذنوبهم، وأنه نسيهم كما نسوه، وأهانهم كما أهانوا دينه وضيعهم كما ضيعوا أمره ولهذا قال تعالى في آية سجود المخلوقات له: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، فإنهم لما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه أهانهم، فلم يكن لهم من مكرم، بعد أن أهانهم الله، ومن ذا يكرم من أهانه الله؟ أو يهين من أكرمه الله؟.

[وقوع الخوف والوحشة في القلب]:

ومن (آثارها): ما يلقيه الله سبحانه من الرعب والخوف في قلب العاصي، فلا تراه إلا خائفاً مرعوباً، فإن الطاعة حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين من عقوبات الدنيا والآخرة، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب، فمن أطاع الله انقلبت المخاوف في حقه أماناً، ومن عصاه انقلبت مآمنه مخاوف.

فلا تجد العاصي إلا وقلبه كأنه بين جناحي طائر، إن حركت الريح الباب قال: جاء الطلب، وإن سمع وقع قدم خاف أن يكون نذيراً بالعطب، يحسب كل صيحة عليه، وكل مكروه قاصداً إليه، فمن خاف الله آمنه من كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء.

بـذا قضى الله بيـن الخلق مـذ خُلقوا إن المخـاوف والإجـرام فـي قـرن

ومن عقوباتها: أنها توقع الوحشة العظيمة في القلب، فيجد المذنب نفسه مستوحشاً، وقد وقعت الوحشة بينه وبين ربه، وبينه وبين الخلق، وبينه وبين نفسه، وكلما كثرت الذنوب اشتدت الوحشة، وأمرُّ العيش عيش المستوحشين الخائفين، وأطيبُ العيش عيش المستأنسين.

فلو نظر العاقل ووازن بين لذة المعصية وما تولده فيه من الخوف والوحشة لعلم سوء حاله وعظيم غبنه، إذ باع أنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية وما توجبه من الخوف:

إذا كنت قد أوحشتك الذنو ب فدعها إذا شئت واستأنس

وسر المسألة: أن الطاعة توجب القرب من الرب سبحانه، وكلما اشتد القرب قوي الأنس، والمعصية توجب البعد من الرب، وكلما ازداد البعد قويت الوحشة، ولهذا يجد العبد وحشة بينه وبين عدوه للبعد الذي بينهما، وإن كان ملابساً له قريباً منه، ويجد أنساً قوياً بينه وبين من يحب، وإن كان بعيداً عنه.

والوحشة سببها الحجاب، وكلما غلظ الحجاب زادت الوحشة، فالغفلة توجب الوحشة، وأشد منها وحشة المعصية، وأشد منها وحشة الشرك والكفر، ولا تجد أحداً يلابس شيئاً من ذلك إلا ويعلوه من الوحشة بحسب ما لابسه منه فتعلو الوحشة وجهه وقلبه، فيستوحش منه.

[صرف القلب عن صحته]:

ومن (آثارها): أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه، فلايزال مريضاً معلولاً، لاينتفع بالأغذية التي بها حياته وصلاحه، فإن تأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان، بل الذنوب أمراض القلوب، ولادواء إلا تركها، وقد أجمع السائرون إلى الله على أن

القلوب لاتعطى مناها حتى تصل إلى مولاها، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة، ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها، فيصير نفس دوائها، ولا يصح لها ذلك إلا بمخالفته هواها، وهواها مرضها، وشفاؤها مخالفته، فإن استحكم المرض قتل أو كاد، وكما أن من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه، كذلك يكون قبله في هذه الدار في جنة عاجلة، لا يشبه نعيم أهلها نعيم ألبتة، بل التفاوت الذي بين النعيمين كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة، وهذا أمر لا يصدق به إلا من باشر قلبه هذا وهذا، ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ ـ ١٤] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة كذلك، أعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟.

وأي عذاب أشد من الخوف والهم والحزن، وضيق الصدر، وإعراضه عن الله والدار الآخرة، وتعلقه بغير الله، وانقطاعه عن الله، بكل واد منه شعبة، وكل شيء تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب، فكل من أحبَّ شيئاً غير الله عذب به ثلاث مرات في هذه الدار: فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل، فإذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته، والتنغيص والتنكيد عليه وأنواع المعارضات، فإذا سلبه اشتد عذابه عليه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار.

وأما في البرزخ: فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يرجى عوده، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده، وألم الحجاب عن الله، وألم الحسرة التي تقطع الأكباد.

فالهمُّ والغمُّ والحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما تعمل الهوام والديدان في أبدانهم، بل عملها في النفوس دائم مستمر، حتى

يردها الله إلى أجسادها، فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر.

فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طرباً وفرحاً وأنساً بربه، واشتياقاً إليه وارتياحاً بحبه وطمأنينة بذكره؟ حتى يقول بعضهم في حال نزعه: واطرباه ويقول الآخر: إن كان أهل الجنة في مثل هذا الحال إنهم لفي عيش طيب، ويقول الآخر: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها، وما ذاقوا أطيب ما فيها، ويقول الآخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف، ويقول الآخر: أن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

فيا مَنْ باع حظه الغالي بأبخس الثمن، وغبن كل الغبن في هذا العقد، وهو يرى أنه قد غبن، إذا لم تكن لك خبرة بقيمة السلعة فاسأل المقوِّمين. فيا عجباً من بضاعة معك اللهُ مشتريها، وثمنها جنة المأوى، والسفير الذي جرى على يده عقد التبايع، وضمن الثمن عن المشتري هو الرسول ﷺ.

[العمى في بصر القلب]:

ومن (آثارها): أنها تعمي بصر القلب، وتطمس نوره، وتسد طرق العلم وتحجب مواد الهداية.

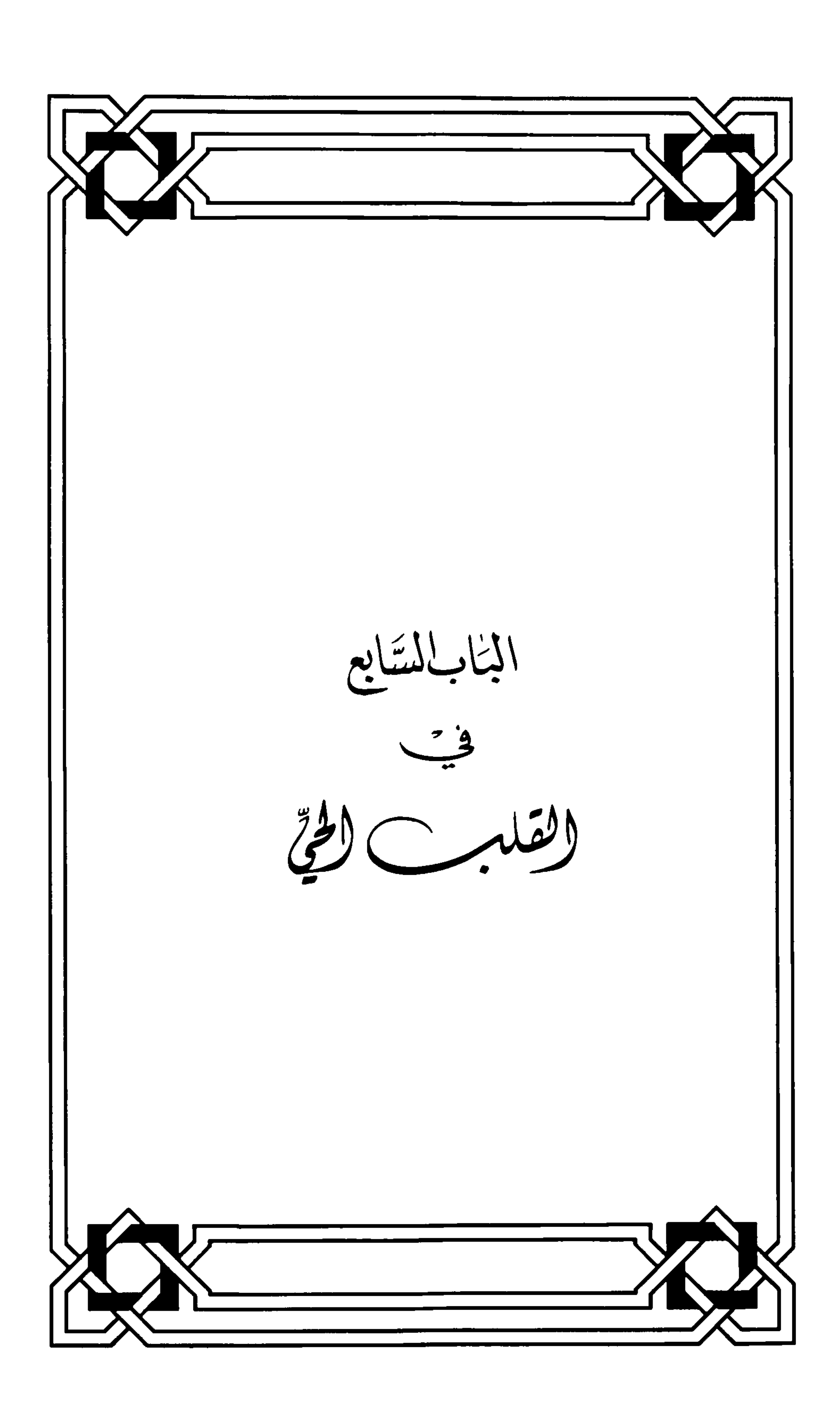
وقد قال مالك للشافعي رحمهما الله تعالى، لما اجتمع به الشافعي ورأى تلك المخايل: إني أرى الله تعالى قد ألقى على قلبك نوراً، فلا تطفئه بظلمة المعصية.

ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل، وظلام المعصية يقوى، حتى يصير القلب في مثل الليل البهيم، فكم من مهلك يسقط فيه وهو لا يبصر، كأعمى خرج بالليل في طريق ذات مهالك ومعاطب، فيا عزة السلامة ويا كثرة العطب، ثم تقوى تلك الظلمات، وتفيض من القلب إلى الجوارح، فيغشى القلب منها سواد، بحسب قوتها وتزايدها، فإذا كان الموت ظهرت

في البرزخ، فامتلأ القبر ظلمة، كما قال النبي ﷺ: (إن هذه القبور ممتلئة على أهلها ظلمة، وإن الله ينورها بصلاتي عليهم)[1]، فإذا كان يوم المعاد وحشر العباد علت الظلمة الوجوه علواً ظاهراً يراه كل أحد حتى يصير الوجه أسود مثل الحممة، فيالها من عقوبة، لا توازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها إلى آخرها، فكيف بقسط العبد المنغص النكد المتعب في زمن هو ساعة من حلم؟ والله المستعان.

* * *

(١) رواه مسلم (٩٥٦).



الباب السابع

في

القلب الحيّ

الفصل الأول

حياة القلب مادة كل خير

[الحياة والنور أصل سعادة العبد]:

أصل كل خير وسعادة للعبد، بل لكل حي ناطق: كمال حياته ونوره. فالحياة والنور مادة الخير كله.

قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا؟﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فجمع تعالى بين الأصلين: الحياة، والنور.

فبالحياة تكون قوته، وسمعه وبصره، وحياؤه وعِفَّته، وشجاعته وصبره، وسائر أخلاقه الفاضلة، ومحبته للحسن، وبغضه للقبيح.

فكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات، وإذا ضعفت حياته ضعفت فيه هذه الصفات.

وحياؤه من القبائح هو بحسب حياته في نفسه.

فالقلب الصحيح الحيُّ إذا عرضت عليه القبائح نَفَر منها بطبعه وأبغضها، ولم يلتفت إليها: بخلاف القلب الميت، فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف، وينكر به المنكر».

وكذلك القلب المريض بالشهوة، فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه.

وكذلك إذا قوي نوره وإشراقه، انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هي عليه، فاستبان حسن الحسن بنوره، فآثره بحياته، وكذلك قبح القبيح.

وقد ذكر سبحانه وتعالى هذين الأصلين في مواضع من كتابه العزيز:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

فجمع بين الروح الذي تحصل به الحياة، والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق، وأخبر أن كتابه الذي أنزله على رسوله ﷺ متضمن للأمرين، فهو روح تَحيا به القلوب، ونور تستضيء به وتشرق،

كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

أي أو من كان كافراً ميت القلب، مغموراً في ظلمة الجهل: فهديناه لرشده، ووفقناه للإيمان، وجعلنا قلبه حياً بعد موته، مشرقاً مستنيراً بعد ظلمته؟.

فجعل الكافر - لانصرافه عن طاعته، وجهله بمعرفته وتوحيده وشرائع دينه، وترك الأخذ بنصيبه من رضاه، والعمل بما يؤيده إلى نجاته وسعادته - بمنزلة الميت الذي لاينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها من مكروه، فهديناه للإسلام وأنعشناه به؛ فصار يعرف مضار نفسه ومنافعها، ويعمل في خلاصها من سخط الله وعقابه، فأبصر الحق بعد عماه عنه، وعرفه بعد جهله به، واتبعه بعد إعراضه عنه، وحصل له نور وضياء يستضيء به، فيمشي بنوره بين الناس، وهم في سُدَفِ[1] الظلام، كما قيل:

---

(١) سدف: جمع سدفة، وهي الظلمة.

ليلـــي بِـــوَجْهِـــكَ مُشْـــرِقٌ   وَظَـلامُــه فــي النَّــاسِ سَــارِي
النَّـــاسُ فـــي سُـــدْفِ الظَّـــلا   مِ، ونحـــنُ فـــي ضَـــوْءِ النَّهـــارِ

[مثلان: مائي وناري]:

ولهذا يضرب الله سبحانه وتعالى المثلين: المائيَّ والناريَّ لوحيه ولعباده.

أما الأول: فكما قال في سورة الرعد: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

فضرب لوحيه المثل بالماء، لما يحصل به من الحياة، وبالنار لما يحصل بها من الاضاءة والإشراق، وأخبر سبحانه وتعالى أو الأودية تسيل بقدرها، فوادٍ كبير يسع ماء كثيراً، ووادٍ صغير يسع ماء قليلاً. كذلك القلوب مُشبَّهة بالأودية، فقلب كبير يسع علماً كثيراً، وقلب صغير إنما يسع بقدره.

وشبه ما تحمله القلوب من الشبهات والشهوات، بسبب مخالطة الوحي لها، وإمازته لما فيها من ذلك، بما يحتمله السيل من الزبد.

وشبه بطلان تلك الشبهات باستقرار العلم النافع فيها، بذهاب ذلك الزبد، وإلقاء الوادي له، وإنما يستقر فيه الماء الذي به النفع.

وكذلك في المثل الذي بعده: يذهب الخبث الذي في ذلك الجوهر، ويستقر صَفوه.

وأما ضرب هذين المثلين للعباد، فكما قال تعالى في سورة البقرة:
﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ فهذا المثل الناري.

ثم قال تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٧ ـ ١٩]، فهذا المثل المائي.

وقد ذكرنا الكلام على أسرار هذين المثلين وبعض ما تضمناه من الحكم في كتاب (المعالم) وغيره[١].

[صلاح القلب موقوف على الأصلين]:

والمقصود: أن صلاح القلب وسعادته وفلاحه موقوف على هذين الأصلين:

قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ [يس: ٦٩ ـ ٧٠].

فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والإنذار به إنما يحصل لمن هو حي القلب.

كما قال في موضع آخر: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ [قٓ: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فأخبر سبحانه أن حياتنا إنما هي باستجابتنا لما يدعونا إليه الله والرسول من العلم والإيمان. فعلم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك.

وشبه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور. وهذا من أحسن التشبيه، فإن أبدانهم قبور قلوبهم. فقد ماتت قلوبهم وقُبرت في أبدانهم.

---

(١) وانظر الوابل الصيب. طبع المكتب الإسلامي عناية صالح أحمد الشامي، ص١٢٢ وما بعدها.

فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [فاطر ٢٢].

ولقد أحسن القائل:

وَفِـي الْجَهْـلِ، قَبْـل الْمَـوْتِ، مَـوْتٌ لأَهْلِـهِ
وَأَجْسَـامِهِـم، قَبْـلَ الْقُبُـورِ، قُبُـورُ
وَأَرْواحُهُـم فـي وَحْشـةٍ مِـنْ جُسُـومِهِـم
وَلَيْـسَ لَهُـم حَتَّـىٰ النُّشُـورِ نشـورُ

ولهذا جعل سبحانه وحيه الذي يُلقيه إلى الأنبياء روحاً، كما قال تعالى: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: ١٥] في موضعين من كتابه(١).

وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ ﴾ [الشورى: ٥٢]، لأن حياة الأرواح والقلوب به.

وهذه الحياة الطيبة هي التي خص بها سبحانه من قَبِلَ وحيه، وعمل به، فقال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]، فخصهم سبحانه وتعالى بالحياة الطيبة في الدارين.

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ ﴾ [هود: ٣].

ومثله قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل: ٣٠].

---

(١) الموضوع الثاني قوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ [النحل: ٢].

فبين سبحانه أنه يُسعد المحسن بإحسانه في الدنيا وفي الآخرة، كما أخبر أنه يُشقي المسيء بإساءته في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤].

وقال تعالى، فجمع بين النوعين: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فأهل الهدى والإيمان لهم شرح الصدر واتساعه وانفساحه وأهل الضلال لهم ضيق الصدر والحرج.

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ ﴾ [الزمر ٢٢].

فأهل الإيمان في النور وانشراح الصدر، وأهل الضلال في الظلمة وضيق الصدر.

وسيأتي في باب طهارة القلب مزيد تقرير لهذا إن شاء تعالى.

والمقصود: أن حياة القلب وإضاءته مادة كل خير فيه، وموته وظلمته مادة كل شرّ فيه.

* * *

الفصل الثاني

حياة القلب بإدراك الحق

[في القلب قوتان: العلم والإرادة]:

ولما كان في القلب قوّتان:

ـ قوة العلم والتمييز.

ـ وقوة الإرادة والحب.

كان كماله وصلاحه باستعمال هاتين القوتين فيما ينفعه، ويعود عليه بصلاحه وسعادته.

فكماله باستعمال قوة العلم في إدراك الحق ومعرفته، والتمييز بينه وبين الباطل.

وباستعمال قوة الإرادة والمحبة في طلب الحق ومحبته، وإيثاره على الباطل.

فمن لم يعرف الحق فهو ضال.

ومن عرفه وآثر غيره فهو مغضوب عليه.

ومن عرفه واتبعه فهو مُنعَم عليه.

وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نسأله في صلاتنا: أن يهدينا صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

ولهذا كان النصارى أخصَّ بالضلال، لأنهم أمة جهل. واليهود أخص بالغضب، لأنهم أمة عناد.

وهذه الأمة هم المنعم عليهم. ولهذا قال سفيان بن عُيينة (رحمه الله تعالى): من فسد من عُبَّادنا ففيه شبه من النصارى، ومن فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، لأن النصارى عبدوا بغير علم، واليهود عرفوا الحق وعدلوا عنه.

وفي (المسند) والترمذي من حديث عَدِيّ بن حاتم رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون)[1].

[معرفة الحق واتباعه]:

وقد جمع الله سبحانه وتعالى بين هذين الأصلين في غير موضع من كتابه، فمنها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة ١٨٦]، فجمع سبحانه وتعالى بين الاستجابة له والإيمان به.

ومنها قوله تعالى عن رسوله ﷺ: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٥].

وقال في وسط السورة: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْءَاخِرِ وَالْمَلَٰٓئِكَةِ وَالْكِتَٰبِ وَالنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَى الزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، إلى آخر الآية.

---

(١) أخرجه الترمذي: (٢٩٥٤).

وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

فأقسم سبحانه وتعالى بالدهر الذي هو زمن الأعمال الرابحة والخاسرة، على أن كل أحد في خسر، إلا من كمّل قُوّته العلمية بالإيمان بالله، وقوته العملية بالعمل بطاعة الله. فهذا كماله في نفسه.

ثم كمّل غيره بوصيتِه له بذلك، وأمره إياه بِه، وملاك ذلك، وهو الصبر.

فكَمَّل نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وكمل غيره بتعليمه إياه ذلك، ووصيته بالصبر عليه، ولهذا قال الشافعي رحمه الله تعالى: «لو فكر الناس في سورة: والعصر، لكفتهم».

وهذا المعنى في القرآن في مواضع كثيرة: يخبر سبحانه وتعالى أن أهل السعادة هم الذين عرفوا الحق واتبعوه، وأن أهل الشقاوة هم الذين جهلوا الحق وضلوا عنه، وخالفوه واتبعوا غيره.

وينبغي أن تعرف أن هاتين القوتين لا يتعطلان في القلب، بل إن استعمل قوته العلمية في معرفة الحق وإدراكه، وإلا استعملها بمعرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل، وإن استعمل قوته الإرادية العملية في العمل به، وإلا استعملها في ضده، فالإنسان حارث هَمّام بالطبع، كما قال النبي ﷺ: (أصدق الأسماء: حارث وهمام)[1].

فالحارث: الكاسب العامل، والهمام: المريد.

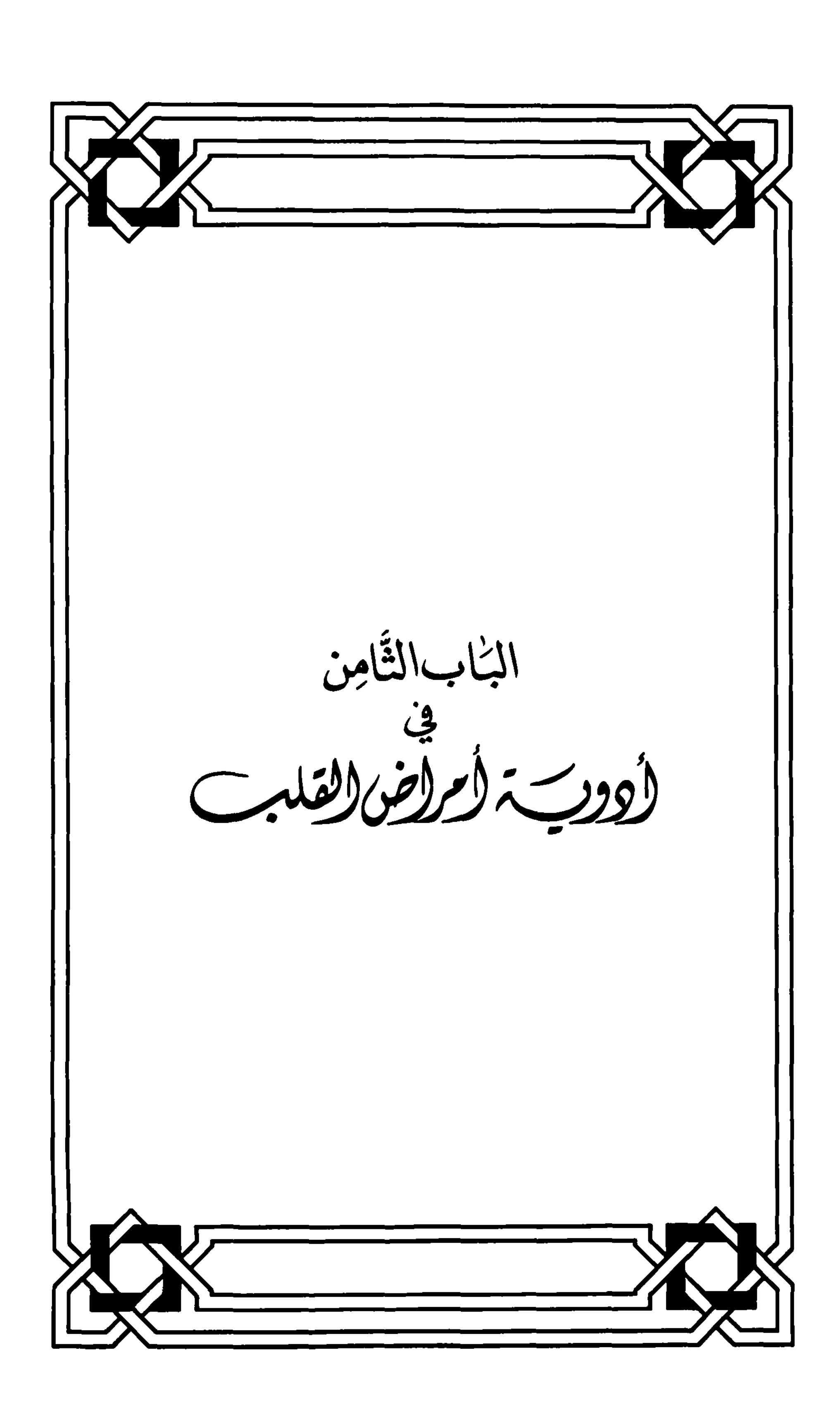
فإن النفس متحركة بالإرادة، وحركتها الإرادية لها من لوازم ذاتها، والإرادة تستلزم مراداً يكون مُتَصَوَّراً لها، متميزاً عندها، فإن لم تتصور الحق

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥٠).

وتطلبه وتريده تصورت الباطل وطلبته، وأرادته ولابد.

وهذا يتبين بالباب الذي بعده. فنقول:



البَاب الثَّامِن
في
أدوية أمراض القلب

الفصل الأول

بيان أمراض القلب

مرض القلب نوعان:

[الأول]: نوع لا يتألم به صاحبه في الحال؛ وهو النوع المتقدم، كمرض الجهل، ومرض الشبهات والشكوك ومرض الشهوات.

وهذا النوع هو أعظم النوعين ألماً، ولكن لفساد القلب لا يُحس بالألم، ولأن سَكْرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم، وإلا فألمه حاضر فيه، حاصل له، وهو متوارٍ عنه باشتغاله بضده.

وهذا أخطر المرضين وأصعبهما.

وعلاجه إلى الرسل وأتباعهم، فهم أطباء هذا المرض.

والنوع الثاني: مرض مؤلم له في الحال، كالهمِّ والغمِّ والحَزَنِ والغيظ.

وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعية، كإزالة أسبابه، أو بالمداواة بما يضاد تلك الأسباب؛ ويدفع موجبها مع قيامها.

وهذا كما أن القلب قد يتألم بما يتألم به البدن ويشقى بما يشقى به البدن، فكذلك البدن يتألم كثيراً بما يتألم به القلب، ويشقيه ما يشقيه.

فأمراض القلب التي تزول بالأدوية الطبيعية من جنس أمراض البدن، وهذه لا توجب وحدها شقاءه وعذابه بعد الموت.

وأما أمراضه التي لاتزول إلا بالأدوية الإيمانية النبوية فهي التي توجب

له الشقاء والعذاب الدائم، إنْ لم يتداركها بأدويتها المضادة لها.

فإذا استعمل تلك الأدوية حصل له الشفاء.

ولهذا يقال: «شفى غيظه» فإذا استولى عليه عدوه آلمه ذلك، فإذا انتصف منه اشتفى قلبه.

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ﴾ [التوبة: ١٤ـ١٥].

فأمر بقتال عدوهم، وأعلمهم أن فيه ستَّ فوائد[1].

فالغيظ: يؤلم القلب، ودواؤه في شفاء غيظه، فإن شَفاه بحق اشتفى، وإن شفاه بظلم وباطل زاده مرضاً من حيث ظن أنه يشفيه، وهو كمن شفى مرض العشق بالفجور بالمعشوق، فإن ذلك يزيد مرضه، ويوجب له أمراضاً أُخر أصعب من مرض العشق.

وكذلك الغَمُّ والهم والحزن أمراض للقلب، وشفاؤها بأضدادها: من الفرح والسرور، فإن كان ذلك بحق اشتفى القلب، وصح وبرئ من مرضه، وإن كان بباطل توارى ذلك واستتر. ولم يزل، وأعقبه أمراضاً هي أصعب وأخطر.

وكذلك الجهل: مرض يؤلم القلب. فمن الناس من يداويه بعلوم لا تنفع، ويعتقد أنه قد صح من مرضه بتلك العلوم، وهي في الحقيقة إنما تزيده مرضاً إلى مرضه؛ لكن اشتغل القلب بها عن إدراك الألم الكامن فيه، بسبب جهله بالعلوم النافعة، التي هي شرط في صحته وبُرْئه.

---

(١) هي: يعذبهم الله، ويخزهم، وينصر المؤمنين عليهم، ويشف صدورهم، ويذهب غيظ قلوبهم، ويتوب على من يشاء.

قال النبي ﷺ في الذين أفتوا بالجهل، فهلك المستفتي بفتواهم: (قتلوه، قتلهم الله، ألا سألوا إذْ لم يعلموا؟ فإنما شِفاء العَيِّ السؤال)[1].

فجعل الجهل مرضاً وشفاءه سؤال أهل العلم.

وكذلك الشاك في الشيء المرتاب فيه، يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين، ولما كان ذلك يوجب له حرارة قيل لمن حصل له اليقين: ثلج صدره وحصل له بَرْد اليقين، وهو كذلك يضيق بالجهل والضلال عن طريق رُشده، وينشرح بالهدَى والعلم.

قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وسيأتي ذكر مرض ضيق الصدر وسببه وعلاجه، إن شاء الله.

والمقصود أن:

من أمراض القلوب ما يزول بالأدوية الطبيعية.

ومنها ما لا يزول إلا بالأدوية الشرعية الإيمانية.

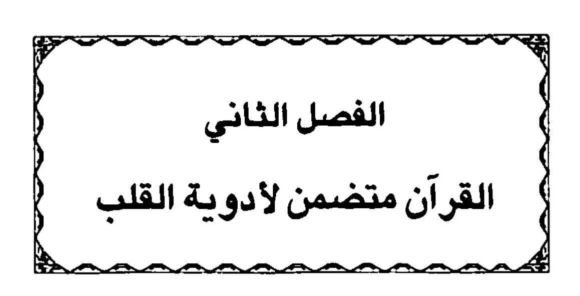
والقلب له حياة وموت، ومرض وشفاء.

وذلك أعظم مما للبدن وبالله التوفيق.

* * *

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٧)؛ وابن ماجه (٥٧٢)؛ والدارمي (٧٥٢) عن ابن عباس؛ ولأبي داود عن جابر (٣٣٦).



الفصل الثاني
القرآن متضمن لأدوية القلب

[شفاء القرآن لمرض الشبهات]:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقد تقدم أن جماع أمراض القلب هي: أمراض الشبهات، والشهوات.

والقرآن شفاء للنوعين:

ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل، فتزول أمراض الشُّبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه.

وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية: من التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات المعاد والنبوّات، ورد النِّحَل الباطلة والآراء الفاسدة، مثل القرآن. فإنه كفيل بذلك كله، متضمن له على أتمّ الوجوه وأحسنها، وأقربها إلى العقول، وأفصحها بياناً.

[القرآن هو الشفاء الحقيقي]:

فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك؛ ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه.

فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عياناً بقلبه، كما يرى الليل والنهار، وعلم أن ما عداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم:

بين علوم لا ثقة بها، وإنما هي آراء وتقليد.

وبين ظنون كاذبة لا تغني عن الحق شيئاً.

وبين أمور صحيحة لامنفعة للقلب فيها.

وبين علوم صحيحة قد وعَّروا الطريق إلى تحصيلها، وأطالوا الكلام في إثباتها، مع قلة نفعها. فهي: «لحم جمل غَثٍّ على رأس جبل وعر، لا سهل فيُرتَقَى، ولا سمين فينتقل»[1].

[تكلّف المتكلمين وتعقيدهم]:

وأحسن ماعند المتكلمين وغيرهم فهو في القرآن أصح تقريراً وأحسن تفسيراً، فليس عندهم إلا التكلف والتطويل أو التعقيد، كما قيل:

لولا التنافسُ في الدنيا لَما وُضِعَتْ
كتبُ التَّناظُرِ، لا (المغني) ولا(العمد)
يحلّلونَ بزعمٍ مِنهُمُ عُقَداً
وبالّذي وضَعُوه زادتِ العُقَدُ

فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذي وضعوه الشبه والشكوك، والفاضل الذكي يعلم أن الشبه والشكوك زادت بذلك. ومن المحال أن لا يحصل الشفاء والهدى؛ والعلم واليقين من كتاب الله وكلام رسوله، ويحصل من كلام هؤلاء المتحيرين المتشككين الشاكين، الذين أخبر الواقف على نهايات إقدامهم بما انتهى إليه من (مرامهم)[2]، حيث يقول:

---

(١) متفق عليه، (خ ٥١٨٩، م٢٤٤٨)، وهو جزء من الحديث المعروف بحديث (أم زرع).

(٢) هو الإمام الفخر الرازي، المتوفى سنة (٦٠٦هـ).

نهــايــةُ إقــدامِ العقــولِ عِقَــالُ   وأكثــرُ سَعْــيِ العــالميــنَ ضَــلالُ
وأرواحُنا في وَحشةٍ منْ جُسُومِنا   وَحــاصِــلُ دُنيــانــا أَذىً ووَبــال
ولم نستفدْ مِنْ بحثِنَا طُوْلَ عُمْرِنَا   سِوىٰ أنْ جَمعنا فيهِ قِيْلَ وَقَالُوا

لقد تأملتُ الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولاتروي غليلاً. ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن.

أقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

وأقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

فهذا إنشاده وألفاظه في آخر كتبه. وهو أفضل أهل زمانه على الإطلاق في علم الكلام والفلسفة.

وكلام أمثاله في مثل ذلك كثير جدّاً قد ذكرناه في كتاب (الصواعق المرسلة) وغيره.

وذكرنا قول بعض العارفين بكلام هؤلاء: آخر أمر المتكلمين الشك وآخر أمر المتصوفين الشطح.

والقرآن يوصلك إلى نفس اليقين في هذه المطالب التي هي أعلى مطالب العباد، ولذلك أنزله من تكلم به. وجعله شفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين.

[شفاء القرآن لمرض الشهوات]:

وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والتزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة،

والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده، ويرغب عما يضره، فيصير القلب محبّاً للرشد، مبغضاً للغي.

فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة، فيصلح القلب، فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، فتصلح أفعاله الاختيارية الكسبية، كما يعود البدن بصحته وصلاحه إلى الحال الطبيعي، فيصير بحيث لا يقبل إلا الحق، كما أن الطفل لا يقبل إلا اللبن.

وعادَ الفتىٰ كالطِّفلِ، ليسَ بقَابِلِ
سِوىٰ المَحْضِ[1] شيئاً، واستراحتْ عواذِلُهْ

فيتغذى القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويقويه، ويؤيده ويفرحه، ويسره وينشطه، ويثبت ملكه، كما يتغذى البدن بما ينميه ويقويه.

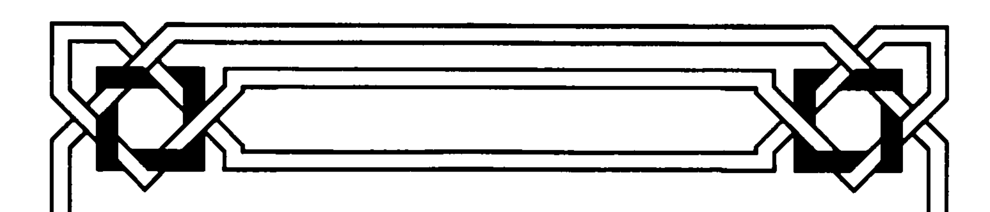
وكل من القلب والبدن محتاج إلى أن يترقى فينمو ويزيد، حتى يكمل ويصلح، وكما أن البدن محتاج إلى أن يرقى بالأغذية المصلحة له والحِمْية عما يضره، فلا ينمو إلا بإعطائه ما ينفعه، ومنع ما يضره، فكذلك القلب لا يزكو ولا ينمو، ولا يتم صلاحه إلا بذلك، ولا سبيل له إلى الوصول إلى ذلك إلا من القرآن، وإن وصل إلى شيء منه من غيره فهو نزر يسير، لا يحصل له به تمام المقصود.

وكذلك الزرع لا يتم إلا بهذين الأمرين، فحينئذ يقال: زكا الزرع وكمل.

ولما كانت حياته ونعيمه لا تتم إلا بزكاته وطهارته لم يكن بدّ من ذكر هذا وهذا، فنقول[2]:

---

(١) المحض: اللبن الخالص.
(٢) مراده ما يأتي في الباب التالي.



البَابُ التَّاسِعُ
في
طهارة القلب
من أدرانه ونجاساته

الفصل الأول
الثياب وطهارة القلب

[قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾]:

هذا البـاب، وإن كان داخـلاً فيما قبله[1] كما بينا أن الزكاة لا تحصل إلا بالطهارة، فأفردناه بالذكر لبيان معنى طهارته، وشدة الحاجة إليها، ودلالة القرآن والسنة عليها.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝﴾ [المدثر: ١ ـ ٤].

وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

[القائلون بأن المراد بالثياب القلب]:

وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب ههنا القلب، والمراد بالطهارة إصلاح الأخلاق والأعمال.

قال الواحدي: اختلف المفسرون في معناه.

فـروى عطاء عن ابن عبـاس قـال: يعني من الإثم، ومما كانـت الجاهلية تجيزه.

---

(١) المقصود أنه داخل في التزكية، وهو موضوع الباب التالي وقد كان حسب وضع المؤلف قبل هذا الباب، وإنما أخرته بناء على تقرير المؤلف أن الزكاة إنما تكون بعد الطهارة.

وهذا قول قتادة ومجاهد، قالا: نفسك فطهر من الذنب.

ونحوه قول الشَّعْبي وإبراهيم والضحاك والزُّهري.

وعلى هذا القول: «الثياب» عبارة عن النفس، والعرب تكْني بالثياب عن النفس. ومنه قول الشَّمَّاخ:

رَموها بأثوابٍ خفافٍ، فَلا تَرىٰ   لهـا شَبَهـاً إلا النعـامَ المنَفَّـرا

رموها يعني «الركاب» بأبدانهم.

وقال عنترة:

فشككتُ بـالرُّمحِ الطَّويلِ ثيـابَهُ   ليْـسَ الكَريمُ عَلَىٰ القَنَـىٰ بِمُحَـرَّمِ

يعني نفسه.

وقال في رواية الكلبي: يعني لا تغدر، فتكون غادراً دنس الثياب.

وقال سعيد بن جبير: كان الرجل إذا كان غادراً قيل: دنس الثياب، وخبيث الثياب.

وقال عكرمة: لا تلبس ثوبك على معصية، ولا على فُجْرَة، وروى ذلك عن ابن عباس، واحتج بقول الشاعر:

وإنِّـي بحَمْـد اللهِ لا ثـوبَ غـادرٍ   لَبسْـتُ، ولا مـن خِـزْيَـةٍ أتقنَّـع

وهذا المعنى أراد من قال في هذه الآية: وعملك فأصلح، هو قول أبي رزين ورواية منصور عن مجاهد وأبي رَوْق.

وقال السُّدي: يقال للرجل إذا كان صالحاً: إنه لطاهر الثياب، وإذا كان فاجراً: إنه لخبيث الثياب.

قال الشاعر:

لا هُـمَّ إنَّ عـامِـرَ بـنَ جَهْـمِ   أَوْذمَ حَجّـاً فـي ثِيـابِ دُسْـمِ[1]

يعني أنه متدنس بالخطايا، وكما وصفوا الغادر الفاجر بدنس الثوب، وصفوا الصالح بطهارة الثوب، قال امرؤ القيس:

ثيابُ بَني عَوف طهَارَى نَقية

يريد أنهم لا يغدرون، بل يوفون.

وقال الحسن: خُلُقك فحسِّنهُ، وهذا قول القرطبي.

وعلى هذا: الثياب عبارة عن الخلق، لأن خلق الإنسان يشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه.

وروى العَوفي عن ابن عباس في هذه الآية: لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طيب، والمعنى طهرها من أن تكون مغصوبة، أو من وجه لا يحل اتخاذها منه.

وروى عن سعيد بن جبير: وقلبك ونيتك فطهر.

وقال أبو العباس: الثياب اللباس، ويقال: القلب، وعلى هذا ينشد:

فسُلِّي ثيابي من ثيابك تَنْسلي

[القائلون بتفسير الآية على ظاهرها]:

وذهب بعضهم في تفسير هذه الآية إلى ظاهرها، وقال: إنه أمر بتطهير ثيابه من النجاسات التي لا تجوز معها الصلاة، وهو قول ابن سيرين، وابن زيد.

---

(١) أوذم الحج: أوجبه على نفسه، والمعنى: أنه أحرم بالحج وهو متلطخ بالذنوب.

وذكر أبو إسحاق: وثيابك فقصر، قال: لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسة، فإنه إذا انجرَّ على الأرض لم يُؤمَنْ أن يصيبه ما ينجسه، وهذا قول طاوس.

[قول من فسر الثياب بالنساء]:

وقال ابن عرفة معناه: نساءك طهرهن، وقد يكنى عن النساء بالثياب واللباس. قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وكنى عنهن بالإزار، ومنه قول الشاعر:

ألا أبلغْ أبا حَفْصٍ رسولاً   فِدىً لكَ من أخي ثقةٍ: إزاري

أي أهلي.

ومنه قول البراء بن مَعْرور للنبي ﷺ ليلة العقَبة: «لَنَمْنَعَنَّكَ ممَّا نَمْنَعُ منه أُزُرَنَا» أي نساءنا.

[رأي ابن القيم]:

قلت: الآية تعمُّ هذا كله، وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم، إن لم تتناول ذلك لفظاً فإن المأمور به إن كان طهارة القلب، فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك.

[أثر اللباس والطعام في هيئة القلب]:

فإن خبث الملبس يُكسبُ القلب هَيْئةً خبيثة، كما أن خبث المطعم يكسبه ذلك.

ولذلك حرم لبس جلود النُّمور والسِّباع بنهي النبي ﷺ عن ذلك في

عدة أحاديث صحاح[1] لا معارض لها، لما تُكسب القلب من الهيئة المشابهة لتلك الحيوانات، فإن الملابس الظاهرة تسري إلى الباطن، ولذلك حرم لبس الحرير والذهب على الذكور، لما يكتسب القلب من الهيئة التي تكون لمن ذلك لبسه من النساء وأهل الفجور والخيلاء.

والمقصود: أن طهارة الثوب وكونه من مكسب طيب هو من تمام طهارة القلب وكمالها، فإن كان المأمور به ذلك فهو وسيلة مقصودة لغيرها، فالمقصود لنفسه أولى أن يكون مأموراً به، وإن كان المأمور به طهارة القلب وتزكية النفس، فلا يتم إلا بذلك، فتبين دلالة القرآن على هذا وهذا.

* * *

(١) من ذلك ما أخرجه أبو داود برقم (٤١٣٠، ٤١٣١).

الفصل الثاني

أثر سماع الباطل على القلب

[سماع الباطل يؤدي إلى تحريف الحق]:

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١] عقيب قوله: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ مما يدل على أن العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله أكسبه ذلك تحريفاً للحق عن مواضعه، فإنه إذا قبل الباطل أحبه ورضيه، فإذا جاء الحق بخلافه ردَّه وكذبه إن قدر على ذلك، وإلا حَرَّفه.

كما تصنع الجَهْمية بآيات الصفات وأحاديثها، يردُّون هذه بالتأويل الذي هو تكذيب بحقائقها، وهذه بكونها أخبار آحاد لا يجوز الاعتماد عليها في باب معرفة الله وأسمائه وصفاته. فهؤلاء وإخوانهم من الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، فإنهم لو طهرت لما تعوضت بالباطل عن كلام الله ورسوله.

كما أن المنحرفين من أهل الإرادة لما لم تطهر قلوبهم تعوضوا بالسماع الشيطاني عن السماع القرآني الإيماني.

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله».

فالقلب الطاهر ـ لكمال حياته ونوره وتخلصه من الأدران والخبائث ـ لا يشبع من القرآن، ولا يتغذَّى إلا بحقائقه. ولا يتداوى إلا بأدويته، بخلاف القلب الذي لم يطهره الله، فإنه يتغذى من الأغذية التي تناسبه،

بحسب ما فيه من النجاسة. فإن القلب النجس كالبدن العليل المريض، لا تلائِمه الأغذية التي تلائم الصحيح.

ودلّت الآية على أن طهارة القلب موقوفة على إرادة الله، وأنه سبحانه لما لم يرد أن يطهر قلوب القائلين بالباطل، المحرفين للحق، لم يحصل لها الطهارة.

ولا يصح أن تفسر الإرادة ههنا بالإرادة الدينية، وهي الأمر والمحبة، فإنه سبحانه قد أراد ذلك لهم أمراً ومحبة، ولم يرده منهم كوناً. فأراد الطهارة لهم وأمرهم بها، ولم يرد وقوعها منهم، لما له في ذلك من الحكمة التي فواتها أكره إليه من فوات الطهارة منهم.

وقد أشبعنا الكلام في ذلك في كتابنا الكبير في القدر(١).

[لا يدخل الجنة خبيث](٢):

ودلت الآية على أن من لم يطهر الله قلبه فلا بد أن يناله الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة، بحسب نجاسة قلبه وخبثه.

ولهذا حَرَّم الله سبحانه الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث، ولا يدخلها إلا بعد طِيبه وطهره. فإنها دار الطيبين. ولهذا يقال لهم: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، أي ادخلوها بسبب طيبكم.

والبشارة عند الموت لهؤلاء دون غيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخبث. فمن تطهر في

---

(١) هو كتاب (شفاء العليل).

(٢) هذه الفقرة وما بعدها حتى آخر الفصل استطرادات تناسبية جرّت إليها دلالة الآية الكريمة.

الدنيا ولقي الله طاهراً من نجاساته دخلها بغير معوق .

ومن لم يتطهر في الدنيا فإن كانت نجاسته عينية ، كالكافر ، لم يدخلها بحال. وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعدما يتطهر من تلك النجاسة، ثم لا يخرج منها .

حتى إن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط حُبِسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيُهَذَّبون من بقايا بقيت عليهم، قَصَّرت بهم عن الجنة ، ولم توجب لهم دخول النار ، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم في دخول الجنة .

[طهارتان]:

والله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفاً على الطهارة، فلا يدخل المصلي عليه حتى يتطهر . وكذلك جعل الدخول إلى جنته موقوفاً على الطيب والطهارة، فلا يدخلها إلا طيب طاهر .

فهما طهارتان :

طهارة البدن .

وطهارة القلب .

ولهذا شرع للمتوضئ أن يقول عقيب وضوئه : (أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . اللهم اجعلني من التَّوَّابين واجعلني من المتطهرين)[1] .

فطهارة القلب بالتوبة .

وطهارة البدن بالماء .

فلما اجتمع له الطهران صلح للدخول على الله ، والوقوف بين يديه ومناجاتِه .

---

(١) أخرجه مسلم وغيره .

[معنى دعاء (اللهم طهرني..)]:

وسألَت شيخ الإسلام عن معنى دعاء النبي ﷺ (اللهمَّ طهرني من خطايـاي بالماء والثَّلج والبَرَد)[1] كيف تطهر الخطايـا بذلك؟ وما فائدة تخصيص التطهير بذلك؟ وقوله في لفظ آخر «والماء البارد» والحارُّ أبلغ في الإنقاء؟.

فقال: الخطايا توجب للقلب حرارة ونجاسة وضعفاً، وترخي القلب وتضرم فيه نـار الشـهوة وتنجسـه، فإن الخطايـا والذنوب له بمنزلة الحطب الذي يمد النار ويوقدها، ولهذا كلما كثرت الخطايا اشـتدت نار القلب وضعفـه، والماء يغسـل الخبث ويطفئ النار، فإن كان بارداً أورث الجسم صلابة وقوة، فإن كان معه ثلج وبرد كان أقوى في التبريد وصلابة الجسم وشدته، فكان أذهب لأثر الخطايا.

هذا معنى كلامه، وهو محتاج إلى مزيد بيان وشرح.

فـاعلم أن ههنا أربعـة أمور: أمران حسّـيّان، وأمـران معنويـان. فالنجاسة التي تزول بالماء ومزيلها: حسّـيّان، وأثر الخطايـا التي تزول بالتوبة والاستغفار هي ومزيلها: معنويان، وصلاح القلب وحياته ونعيمه لا يتم إلا بهذا وهذا.

فذكر النبي ﷺ من كل شطر قسماً نَبَّه بِه على القسم الآخر. فتضمن كلامه الأقسام الأربعة في غاية الاختصار، وحسن البيان.

كما في حديث الدعـاء بعد الوضوء: (اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين) فإنه يتضمن ذكر الأقسام الأربعة.

ومن كمال بيانه ﷺ، وتحقيقه لما يخبر به، ويأمر به: ويمثل الأمر المطلوب المعنوي بالأمر المحسوس.

---

(١) متفق عليه (خ٧٤٤، م٥٩٨).

وهذا كثير في كلامه ؛ كقوله في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (سل الله الهدى والسداد. واذكر بالهدى هدايتك الطريق، وبالسداد سَداد السَّهم)[1]، إذ هذا من أبلغ التعليم والنصح، حيث أمره أن يذكر إذا سأل الله الهدى إلى طريق رضاه وجنته : كونه مسافراً، وقد ضل عن الطريق، ولا يدري أين يتوجه، فطلع له رجل خبير بالطريق عالم بها، فسأله أن يدله على الطريق، فهكذا شأن طريق الآخرة، تمثيلاً لها بالطريق المحسوس للمسافر.

وحاجة المسافر إلى الله سبحانه : إلى أن يهديه تلك الطريق، أعظم من حاجة المسافر إلى بلد ؛ إلى من يدله على الطريق الموصل إليها.

وكذلك السداد ـ وهو إصابة القصد قولاً وعملاً ـ فمثله مثل رامي السهم، إذا وقع سهمه في نفس الشيء الذي رماه، فقد سدد سهمه وأصاب، ولم يقع باطلاً، فهذا المصيب للحق في قوله وعمله بمنزلة المصيب في رميه.

وكثيراً ما يقرن في القرآن هذا وهذا.

فمنه قوله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة : ١٩٧] أمر الحاج بأن يتزودوا لسفرهم، ولا يسافروا بغير زاد، ثم نبههم على زاد سفر الآخرة، وهو التقوى. فكما أنه لا يصل المسافر إلى مقصده إلا بزاد يُبلغه إياه، فكذلك المسافر إلى الله والدار الآخرة لا يصل إلا بزاد من التقوى، فجمع بين الزادين.

ومنه قوله تعالى : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : ٢٦]، فجمع بين الزينتين : زينة البدن باللباس، وزينة القلب بالتقوى، وزينة الظاهر والباطن، وجمال الظاهر والباطن.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٢٥).

ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣] فنفى عنه الضلال، الذي هو عذاب القلب والروح، والشقاء الذي هو عذاب البدن والروح أيضاً، فهو منعَّم القلب والبدن بالهدى والفلاح.

ومنه قول امرأة العزيز عن يوسف عليه السلام لما أرته النسوة اللائمات لها في محبته: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾، فأرتهن جماله الظاهر. ثم قالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ فأخبرت عن جماله الباطن بعفته، فأخبرتهن بجمال باطنه، وأرتهن جمال ظاهره.

فنبه النبي ﷺ بقوله: (اللهم طهرني من خطاياي بالماء والثلج والبرد)[1] على شدة حاجة البدن والقلب إلى ما يطهرهما ويبردهما ويقويهما، وتضمن دعاؤه سؤال هذا وهذا، والله تعالى أعلم.

وقريب من هذا: أنه ﷺ: كان إذا خرج من الخلاء قال: (غفرانك)[2] وفي هذا من السر ـ والله أعلم ـ: أن النَّجْوَ يُثقل البدن ويؤذيه باحتباسه، والذنوب تثقل القلب وتؤذيه باحتباسها فيه، فهما مؤذيان مضران بالبدن والقلب، فحمد الله عند خروجه على خلاصه منْ هذا المؤذي لبدنه، وخفة البدن وراحته، وسأل أن يخلصه من المؤذي الآخر ويريح قلبه منه ويخففه.

وأسرار كلماته وأدعيته ﷺ فوق ما يخطر بالبال.

* * *

(١) متفق عليه (خ٧٤٤، م٥٩٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٠) وغيره.

الفصل الثالث

نجاسة المعاصي وأثرها على القلب[1]

[نجاسة الشرك والزنا واللواطة]:

وقد وسم الله سبحانه الشرك والزنا واللواطة بالنجاسة والخبث في كتابه دون سائر الذنوب وإن كانت مشتملة على ذلك، لكن الذي وقع في القرآن قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة: ٢٨].

وقوله في حق اللوطية: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ [الأنبياء ٧٤].

وقالت اللوطية: ﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

فأقروا مع شركهم وكفرهم أنهم هم الأخابث الأنجاس، وأن لوطاً وآله مطهرون من ذلك باجتنابهم له، وقال تعالى في حق الزناة: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ [النور: ٢٦].

[نجاسة الشرك نوعان]:

فأما نجاسة الشرك فهي نوعان: نجاسة مغلظة، ونجاسة مخففة.

---

(١) سبق الحديث عن أثر المعاصي على القلب، والمراد هنا بيان أثرها من حيث طهارة القلب.

فالمغلظة: الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، فإن الله لا يغفر أن يشرك به.

والمخففة: الشرك الأصغر؛ كيسير الرياء، والتصنع للمخلوق، والحلف به وخوفه ورجائه.

ونجاسة الشرك عينية. ولهذا جعل سبحانه الشرك نَجَساً ـ بفتح الجيم ـ ولم يقل: إنما المشركون نجِس ـ بالكسر ـ فإن النجَس عين النجاسة، والنجِس ـ بالكسر ـ المتنجس. فالثوب إذا أصابه بول أو خمر نجِس.. والبول والخمر نجَس. فأنجس النجاسة الشرك، كما أنه أظلم الظلم.

وإن النجَس في اللغة والشرع، هو: المستقذر الذي يطلب مباعدته والبعد منه، بحيث لا يلمس ولا يشم ولا يرى، فضلاً أن يخالط ويلابس لقذارته، ونُفْرة الطباع السليمة عنه. وكلما كان الحي أكمل حياة وأصح حياء كان إبعاده لذلك أعظم، ونفرته منه أقوى.

والأعيان النجسة إما أن تؤذي البدن أو القلب، أو تؤذيهما معاً. والنجَس قد يؤذي برائحته، وقد يؤذي بملابسته، وإن لم تكن له رائحة كريهة.

[أثر النجاسة على الروح والقلب]:

والمقصود: أن النجاسة تارة تكون محسوسة ظاهرة، وتارة تكون معنوية باطنة، فيغلب على الروح والقلب الخبثُ والنجاسة، حتى إن صاحب القلب الحي ليشم من تلك الروح والقلب رائحة خبيثة يتأذى بها. كما يتأذى من شم رائحة النَّتْن، ويظهر ذلك كثيراً في عَرَقه، حتى تجد لرائحة عرقه نتناً. فإن نَتْن الروح والقلب يتصل بباطن البدن أكثر من ظاهره. والعَرق يفيض من الباطن.

ولهذا كان الرجل الصالح طيب العرق. وكان رسول الله ﷺ أطيب الناس عرقاً.

قالت أم سُلَيم، وقد سألها رسول الله ﷺ عنه وهي تلتقطه: «هو من أطيب الطيب»[1].

فالنفس النجسة الخبيثة يقوي خبثها ونجاستها حتى يبدو على الجسد. والنفس الطيبة بضدها، فإذا تجردت وخرجت من البدن وجد لهذه كأطيب نَفْحَة مسك وُجدت على وجه الأرض، ولتلك كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض.

[ما رتب الله على الشرك من آثار]:

والمقصود: أن الشرك لما كان أظلم الظلم، وأقبح القبائح، وأنكر المنكرات، كان أبغض الأشياء إلى الله وأكرهها له، وأشدها مَقْتاً لديه. ورتَّب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه، وأخبر أنه لايغفره، وأن أهله نَجَس، ومنعهم من قربان حرمه، وحرّم ذبائحهم ومناكحتهم، وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين، وجعلهم أعداء له سبحانه ولملائكته ورسله وللمؤمنين، وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبناءهم، وأن يتخذوهم عبيداً.

وهذا لأن الشرك هَضْم لحق الربوبية، وتنقيص لعظمة الإلـٰهية، وسوء ظن برب العالمين، كما قال تعالى: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٣٣١).

فلم يجمع على أحد من الوعيد والعقوبة ما جمع على أهل الإشراك، فإنهم ظنوا به ظن السوء، حتى أشركوا به، ولو أحسنوا به الظن لوحّدوه حق توحيده.

ولهذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ما قَدَروه حق قدره في ثلاث مواضع من كتابه[1]، وكيف يقدره حق قدره من جعل له عَدْلاً ونِدّاً، يحبه، ويخافه، ويرجوه، ويذل له، ويخضع له، ويهرب من سخطه، ويؤثر مرضاته؟.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

أي يجعلون له عَدْلاً في العبادة والمحبة والتعظيم. وهذه هي التسوية التي أثبتها المشركون بين الله وبين آلهتهم، وعرفوا ـ وهم في النار ـ أنها كانت ضلالاً وباطلاً، فيقولون لآلهتهم وهم في النار معهم ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨].

ومعلوم أنهم ما ساووهم به في الذات والصفات والأفعال، ولا قالوا: إن آلهتهم خلقت السماوات والأرض، وأنها تحيي وتميت، وإنما ساووها به في محبتهم لها، وتعظيمهم لها، وعبادتهم إياها، كما ترى عليه أهل الإشراك ممن ينتسب إلى الإسلام.

ومن العجب أنهم ينسبون أهل التوحيد إلى التنقص ـ المشايخ والأنبياء والصالحين ـ وماذنبهم إلا أن قالوا: إنهم عبيد لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم

---

(١) هي في سورة الأنعام، الآية (١٩)؛ وسورة الحج، الآية (٧٤)؛ وسورة الزمر، الآية (٦٧).

ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وأنهم لايشفعون لعابدهم أبداً، بل قد حرم الله شفاعتهم لهم، ولا يشفعون لأهل التوحيد إلا بعد إذن الله لهم في الشفاعة، فليس لهم من الأمر شيءٌ، بل الأمر كله لله، والشفاعة كلها له سبحانه، والولاية له، فليس لخلقه من دونه وليٌّ ولاشفيع.

فالشـرك والتعطيل مبنيـان على سـوء الظن بالله، ولهذا قال إمام الحنفاء لخصمائه من المشركين: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ؟﴾ [الصافات: ٨٦ـ٨٧] وإن كان المعنى: ما ظنكم به أن يعاملكم ويجازيكم به، وقد عبدتم معه غيره، وجعلتم له نداً؟ فأنت تجد تحت هذا التهديد: ما ظننتم بربكم من السوء حتى عبدتم معه غيره؟.

فإن المشرك:

إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يدبر أمر العالم معه: من وزير، أو ظهير، أو عون. وهذا أعظم التنقيص لمن هو غني عن كل ما سواه بذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته.

وإما أن يظن أن الله سبحانه إنما تتم قدرته بقدرة الشريك.

وإما أن يظن بأنه لا يعلم حتى يعلمه الواسطة.

أو لا يرحم حتى يجعله الواسطة يرحم.

أو لايكفي عبده وحده، أن لايفعل ما يريد العبد حتى يشفع عنده الواسطة، كما يشفع المخلوق عند المخلوق، فيحتاج أن يقبل شفاعته لحاجته إلى الشافع وانتفاعه به، وتكثُّره به من القِلَّة، وتعززه به من الذِّلة.

أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الواسطة أن يرفع تلك الحاجات إليه، كما هو حال ملوك الدنيا.

وهذا أصل شرك الخلق.

أو يظن أنه لا يسمع دعاءهم لبعده عنهم، حتى يرفع الوسائط إليه ذلك.

أو يظنْ أن للمخلوق عليه حقاً. فهو يُقْسِم عليه بحق ذلك المخلوق عليه، ويتوسل إليه بذلك المخلوق، كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعزُّ عليهم ولا يمكنهم مخالفته.

وكل هذا تنقص للربوبية، وهضم لحقها، ولو لم يكن فيه إلا نقص محبة الله وخوفه ورجائه، والتوكل عليه، والإنـابة إليه، من قلب المشـرك، بسـبب قسمته ذلك بينـه سبحانه وبين من أشـرك به، فينقص ويضعف أو يضمحل ذلك التعظيم والمحبة والخوف والرجاء، بسبب صرف أكثره أو بعضه إلى من عبده من دونه، لكفى في شناعته.

[البدعة قرينة الشرك]:

فالشرك ملزوم لتنقص الرب سبحانه، والتنقص لازم له ضرورة، شاء المشرك أم أبى. ولهذا اقتضى حمده سبحانه وكمال ربوبيته أن لا يغفره، وأن يُخلّد صاحبه في العذاب الأليم، ويجعله أشقى البرية. فلا تجد مشركاً قط إلا وهو متنقص لله سبحانه، وإن زعم أنه يعظمه بذلك.

كما أنك لا تجد مبتدعاً إلا وهو متنقص للرسول، وإن زعم أنه معظم له بتلك البدعة. فإنه يزعم أنها خير من السنة وأولى بالصواب، أو يزعم أنها هي السنة، إن كان جاهلاً مقلداً، وإن كان مستبصراً في بدعته فهو مشاقّ لله ورسوله.

فالمتنقصون المنقوصون عند الله ورسوله وأوليائه: هم أهل الشرك والبدعة، ولاسيما من بَنَى دينه على أن كلام الله ورسوله أدلة لفظية لاتقبل اليقين، ولاتغني من اليقين والعلم شيئاً. فيالله للمسلمين، أيُّ شيء فات هذا من التنقص؟

وكذلك من نفى صفات الكمال عن الرب تعالى، خشية ما يتوهمه من التشبيه والتجسيم. فقد جاء من التنقص بضد ما وصف الله سبحانه به نفسه من الكمال.

والمقصود: أن هاتين الطائفتين هم أهل التنقص في الحقيقة، بل هم أعظم الناس تنقصاً، لَبَّسَ عليهم الشيطان حتى ظنوا أن تنقصهم هو الكمال. ولهذا كانت البدعة قرينة الشرك في كتاب الله تعالى. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]، فالإثم والبغي قرينان. والشرك والبدعة قرينان.

[الفرق بين نجاسة المعاصي ونجاسة الشرك]:

وأما نجاسة الذنوب والمعاصي، فإنها بوجه آخر، فإنها لا تستلزم تنقيص الربوبية، ولا سوء الظن بالله عزَّ وجلّ. ولهذا لم يرتّب الله سبحانه عليها من العقوبات والأحكام ما رتبه على الشرك.

وهكذا استقرَّت الشريعة على أنه يُعفَى عن النجاسة المخففة، كالنجاسة في محل الاسْتِجْمَار، وأسفل الخُفّ، والحذَاء وبول الصبي الرّضيع وغير ذلك، ما لا يُعْفَى عن المغلظة.

وكذلك يعفى عن الصغائر ما لا يعفى عن الكبائر، ويعفى لأهل التوحيد المحض الذي لم يشوبوه بالشرك ما لا يعفى لمن ليس كذلك، فلو لقَى الموحد الذي لم يشرك بالله شيئاً ألبتة ربَّه بقُراب الأرض خطايا أتاه بقُرابها مَغفرةً[1]، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده وشابَهُ بالشرك. فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب. فإنه يتضمن من

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم برقم (٢٦٨٧).

محبة الله وإجلاله، وتعظيمه، وخوفه، ورجائه وحده، ما يوجب غسل الذنوب، ولو كانت قُراب الأرض، فالنجاسة عارضة، والدافع لها قويّ، فلا تثبت معه.

[أغلظ النجاسات: الزنا واللواطة]:

ولكن نجاسة الزنا واللواطة أغلظ من غيرها من النجاسات، من جهة أنها تفسد القلب، وتضعف توحيده جداً، ولهذا أحظى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركاً؛ فكلما كان الشرك في العبد أغلب كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر، وكلما كان أعظم إخلاصاً كان منها أبعد، كما قال تعالى عن يوسف الصديق: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

فإن عشق الصور المحرَّمة نوع تَعَبُّد لها، بل هو من أعلى أنواع التعبد، ولا سيما إذا استولى على القلب، وتمكّن منه صار تتيُّماً، والتتيم: التعبد، فيصير العاشق عابداً لمعشوقه، كثيراً ما يغلب حبُّه وذكره والشوق إليه، والسعي في مرضاته، وإيثارُ محابِّه على حب الله وذكره، والسعي في مرضاته.

بل كثيراً ما يذهب ذلك من قلب العاشق بالكلية، ويصير متعلقاً بمعشوقه من الصور، كما هو مشاهد، فيصير المعشوق هو إلـٰهه من دون الله، يقدِّم رضاه وحبه على رضَى الله وحبه، ويتقرَّبُ إليه ما لا يتقرب إلى الله، ويُنفق في مرضاته ما لا ينفقه في مرضاة الله، ويتجنّب من سَخَطه ما لا يتجنبه من سخط الله تعالى، فيصير آثر عنده من ربه: حُبّاً، وخضوعاً، وذلاً، وسمعاً، وطاعة.

[تلازم عشق الصور والشرك]:

ولهذا كان العشق والشرك متلازمين، وإنما حكى الله سبحانه العشق عن المشركين من قوم لوط، وعن امرأة العزيز، وكانت إذا ذاك مشركة، فكلما قوي شرك العبد بُليَ بعشق الصور، وكلما قوي توحيده صُرف ذلك عنه.

والزنا واللواطة كمال لذتهما إنما يكون مع العشق، ولا يخلو أصحابهما منه، وإنما لتنقُّله من محل إلى محل لا يبقى عشقه مقصوراً على محل واحد، بل ينقسم على سهام كثيرة، لكل محبوب نصيب من تألُّهه وتعبده.

فليس في الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين، ولهما خاصية في تبعيد القلب من الله، فإنهما من أعظم الخبائث، فإذا انصبغ القلب بهما بَعُدَ ممن هو طيب، ولا يصعد إليه إلا طيب، وكلما ازداد خبثاً ازداد من الله بعداً.

ولهذا قال المسيح فيما رواه الإمام أحمد في (كتاب الزهد): «لا يكون البطَّالون من الحكماء، ولا تِلجُ الزناة مَلكوت السماء».

ولما كانت هذه حال الزنا كان قريباً للشرك في كتاب الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣][1].

---

(١) استطرد هنا المؤلف رحمه الله، حيث ذهب يفصل في شرح هذه الآية. فقال:
والصواب: القول أن هذه الآية محكمة، يعمل بها، لم ينسخها شيء، وهي مشتملة على خبر وتحريم، ولم يأتِ من ادّعى نسخها بحجة ألبتة، والذي أشكل منها على كثير من الناس واضح بحمد الله تعالى.
فإنهم أشكل عليهم قوله: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ هل هو خبر أو نهي؛ أو إباحة؟. =

. . . .

= فإن كان خبراً فقد رأينا كثيراً من الزناة ينكح عفيفة.

وإن كان نهياً فيكون قد نهى الزاني أن يتزوج إلا بزانية أو مشركة، فيكون نهياً له عن نكاح المؤمنات العفائف، وإباحة له في نكاح المشركات والزواني، والله سبحانه لم يرد ذلك قطعاً، فلما أشكل عليهم ذلك طلبوا للآية وجهاً يصح حملها عليه.

وقال بعضهم: المراد من النكاح الوطء والزنا، فكأنه قال: الزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة.

وهذا فاسد، فإنه لا فائدة فيه، ويصان كلام الله عن حمله على مثل ذلك، فإنه من المعلوم أن الزاني لا يزني إلا بزانية، فأي فائدة في الإخبار بذلك؟ ولما رأى الجمهور فساد هذا التأويل أعرضوا عنه.

ثم قالت طائفة: هذا عام اللفظ خاص المعنى، والمراد به رجل واحد وامرأة واحدة، وهي عَناق البَغِيّ وصاحبها، فإنه أسلم، واستأذن رسول الله ﷺ في نكاحها. فنزلت هذه الآية.

وهذا أيضاً فاسد، فإن هذه الصورة المعينة وإن كانت سبب النزول، فالقرآن لا يقتصر به على محال أسبابه، ولو كان كذلك لبطل الاستدلال به على غيرها.

وقالت طائفة: بل الآية منسوخة بقوله: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، وهذا أفسد من الكل، فإنه لاتعارض بين هاتين الآيتين، ولا تناقض إحداهما الأخرى، بل أمر سبحانه بإنكاح الأيامى، وحرّم نكاح الزانية، كما حرّم نكاح المعتدة والمحرمة، وذوات المحارم، فأين الناسخ والمنسوخ في هذا؟.

فإن قيل: فما وجه الآية؟.

قيل: وجهها ـ والله أعلم ـ أن المتزوج أمر أن يتزوج المحصنة العفيفة، وإنما أبيح له نكاح المرأة بهذا الشرط، كما ذكر ذلك سبحانه في سورتي النساء والمائدة [النساء: ٢٤، المائدة: ٥]، والحكم المعلق على الشرط ينتفي عند انتفائه، والإباحة قد علّقت على شرط الإحصان، فإذا انتفى الإحصان انتفت الإباحة المشروطة به.

فالمتزوج إما أن يلتزم حكم الله وشرعه الذي شرعه على لسان رسوله، أولا يلتزمه، فإن لم يلتزنه فهو مشرك لا يرضى بنكاحه إلا من هو مشرك مثله، وإن التزمه وخالفه ونكح ما حرم عليه، لم يصح النكاح، فيكون زانياً، فظهر معنى قوله: ﴿لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ وتبين غاية البيان، وكذلك حكم المرأة.

وكما أن هذا الحكم هو موجب القرآن وصريحه فهو موجب الفطرة، ومقتضى العقل، فإن الله سبحانه حرم على عبده أن يكون قَرْناناً دَيُوثاً زوج بغيّ، فإن الله تعالى فطر الناس على استقباح ذلك واستهجانه، ولهذا إذا بالغوا في سب الرجل قالوا: زوج=

[أثر الزنا في بعد القلب عن الله]:

والمقصود: أن الله سبحانه سمي الزواني والزناة خبيثين وخبيثات، وجنس هذا الفعل قد شرعت فيه الطهارة، وإن كان حلالاً، وسمي فاعله جنباً، لبعده عن قراءة القرآن، وعن الصلاة، وعن المساجد، فمنع من ذلك كله حتى يتطهر بالماء.

فكذلك إذا كان حراماً يبعد القلب عن الله تعالى، وعن الدار الآخرة، بل يحول بينه وبين الإيمان، حتى يحدث طهراً كاملاً بالتوبة؛ وطهراً لبدنه بالماء.

وقول اللوطية: ﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٢] من جنس قوله سبحانه في أصحاب الأخدود: ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج: ٨]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ ﴾ [المائدة ٥٩].

= قحبة، فحرّم الله على المسلم أن يكون كذلك.

فظهرت حكمة التحريم وبان معنى الآية، والله الموفق.

ومما يوضح التحريم، وأنه هو الذي يليق بهذه الشريعة الكاملة: أن هذه الخيانة من المرأة تعود بفساد فراش الزوج وفساد النسب الذي جعله بين الناس لتمام مصالحهم، وعده من جملة نعمه عليهم، فالزنا يفضي إلى اختلاط المياه، واشتباه الأنساب، فمن محاسن الشريعة: تحريم نكاح الزانية، حتى تتوب وتُستبرأ.

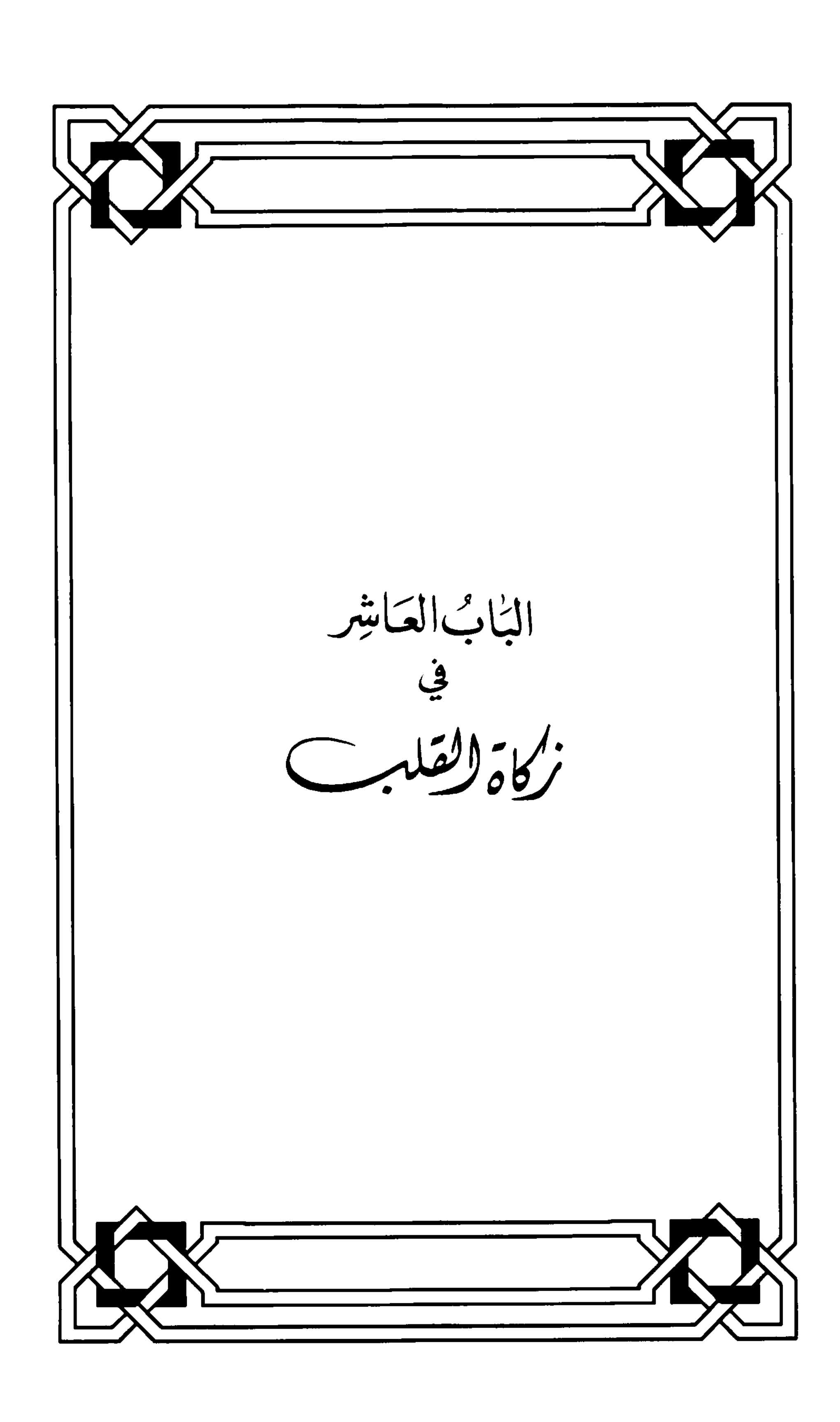
وأيضاً فإن الزانية خبيثة، كما تقدم بيانه، والله سبحانه جعل النكاح سبباً للمودة والرحمة، والمودة خالص الحب، فكيف تكون الخبيثة مودودة للطيب، زوجاً له، والزوج سمّي زوجاً من الازدواج وهو الاشتباه فالزوجان الاثنان المتشابهان، والمنافرة ثابتة بين الطيب والخبيث شرعاً وقَدَراً، فلا يحصل معها الازدواج والتراحم والتواد، فلقد أحسن كل الإحسان من ذهب إلى هذا المذهب، ومنع الرجل أن يكون زوج قحبة.

فأين هذا من قول من جوز أن يتزوجها ويطأها الليلة، وقد وطئها الزاني البارحة، وقال: ماء الزاني لاحرمة له؟!! فهب أن الأمر كذلك، فماء الزوج، له حرمة، فكيف يجوز اجتماعه مع ماء الزاني في رحم واحد؟.

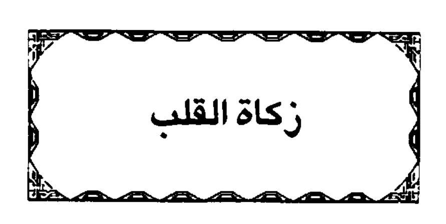
وهكذا المشرك إنما ينقم على الموحد تجريده للتوحيد، وإنه لا يشوبه بالإشراك. وهذا المبتدع: إنما ينقم على السني تجريده متابعة الرسول، وأنه لم يشبهها بآراء الرجال، ولا بشيء مما خالفها. فصبر الموحد المتبع للرسول على ما ينقمه عليه أهل الشرك والبدعة خير له وأنفع، وأسهل عليه من صبره على ما ينقمه الله ورسوله عليه من موافقة أهل الشرك والبدعة.

إذا لم يكن بدٌّ مِنَ الصَّبْرِ، فَاصْطَبِرْ   علىٰ الحَقِّ، ذاكَ الصَّبرُ تُحْمدُ عُقْباهُ

* * *



البَابُ العَاشِر
في
زكاة القلب



زكاة القلب

[معنى الزكاة]:

الزكاة في اللغة: هي النماء والزيادة في الصلاح، وكمال الشيء، يقال: زكا الشيء إذا نما.

قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

فجمع بين الأمرين: الطهارة، والزكاة، لتلازمهما.

[الزكاة إنما تكون بعد الطهارة]:

فإن نجاسة الفواحش والمعاصي في القلب بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن، وبمنزلة الدغَل في الزرع، وبمنزلة الخبث في الذهب والفضة والنحاس والحديد.

فكما أن البدن إذا استفرغ من الأخلاط الرديئة تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت، فعملت عملها بلا معوق ولا ممانع، فنما البدن، فكذلك القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة فقد استفرغ من تخليطه، فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير، فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الرديئة: فزكا ونما، وقوي واشتد، وجلس على سرير ملكه، ونفذ حكمه في رعيته، فسمعت له وأطاعت. فلا سبيل له إلى زكاته إلا بعد طهارته؛ كما قال تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

فجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج .

[فوائد غض البصر عن المحارم][1]:

ولهذا كان غض البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد، عظيمة الخطر، جليلة القدر :

إحداها: حلاوة الإيمان ولذته، التي هي أحلى وأطيب، وألذ مما صرف بصره عنه وتركه لله، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، والنفس مولعة بحب النظر إلى الصور الجميلة، والعين رائد القلب. فيبعث رائده لينظر ما هناك، فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله، تحرك اشتياقاً إليه، وكثيراً ما يتعب ويتعب رسوله ورائده؛ كما قيل :

وكنتَ متى أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِداً ... لِقَلبِكَ يَوماً أَتعبتْكَ المَنَاظِرُ
رَأيتَ الَّذي لا كلُّهُ أنتَ قَادرٌ ... عَليهِ، وَلا عَنْ بَعْضِهِ أنتَ صَابرُ

فإذا كفَّ الرائد عن الكشف والمطالعة استراح القلب من كلفة الطلب والإرادة، فمن أطلق لحظاته دامت حسراته .

فإن النظر يولد المحبة. فتبدأ علاقة يتعلق بها القلب بالمنظور إليه . ثم تَقوى فتصير صبابة. ينصبُّ إليه القلب بكليته. ثم تقوى فتصير غراماً يلزم القلب. كلزوم الغريم الذي لا يفارق غريمه. ثم يقوى فيصير عشقاً. وهو الحب المفرط. ثم يقوى فيصير شغفاً. وهو الحب الذي قد وصل إلى شَغاف القلب وداخله. ثم يقوى فيصير تَتَيُّماً. والتتيم: التعبد، ومنه تَيَّمه الحب إذا عبَّده. وتَيم الله: عبد الله: فيصير القلب عبداً لمن لا يصلح أن يكون هو عبداً له. وهذا كله جناية النظر .

---

(١) هذه الفقرة والتي بعدها استطراد جرَّ إليه موضوع غض البصر المذكور في الآية الكريمة في آخر الفقرة السابقة .

فحينئذ يقع القلب في الأسر. فيصير أسيراً بعد أن كان ملكاً، ومسجوناً بعد أن كان مطلقاً. يتظلم من الطرف ويشكوه. والطرْف يقول: أنا رائدك ورسولك، وأنت بعثتني.

وهذا إنما تبتلى به القلوب الفارغة من حب الله والإخلاص له، فإن القلب لا بد له من التعلق بمحبوب. فمن لمن يكن الله وحده محبوبه، وإلـٰهه ومعبوده، فلا بد أن يتعبد قلبه لغيره.

قال تعالى عن يوسف الصديق: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

فامرأة العزيز لما كانت مشركة وقعت فيما وقعت فيه، مع كونها ذات زوج، ويوسف لما كان مخلصاً لله نجا من ذلك مع كونه شابّاً عَزَباً غريباً مملوكاً.

الفائدة الثانية: في غض البصر: نور القلب وصحة الفراسة.

قال أبو شجاع الكرماني: من عَمَّرَ ظاهره باتباع السنّة، وباطنه بدوام المراقبة، وكف نفسه عن الشهوات، وغض بصره عن المحارم، واعتاد أكل الحلال لم تخطئ له فراسة.

وقد ذكر الله سبحانه قصة قوم لوط وما ابتلوا به، ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]، وهم المتفرسون الذين سلموا من النظر المحرم والفاحشة.

وقال تعالى عقيب أمره للمؤمنين بغضّ أبصارهم وحفظ فروجهم: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

وسر هذا: أن الجزاء من جنس العمل. فمن غضّ بصره عما حرمه الله عليه عوضه الله من جنسه ما هو خير منه؛ فكما أمسك نور بصره عن

المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه، فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله.

وهذا أمر يحسه الإنسان من نفسه. فإن القلب كالمرآة، والهوى كالصدأ فيها. فإذا خلصت من الصدأ انطبعت فيها صور الحقائق كما هي عليه. وإذا صدئت لم تنطبع فيها صور المعلومات. فيكون علمه وكلامه من باب الخرص والظنون.

الفائدة الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته، فيعطيه الله بقوته سلطان النصرة، كما أعطاه بنوره سلطان الحجة، فيجمع له بين السلطانين، ويهرب الشيطان منه، كما في الأثر: إن الذي يخالف هواه يَفْرَق الشيطان من ظله.

[ذل المعصية وعز الطاعة]:

ولهذا يوجد في المتبع هواه من ذل النفس وضعفها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه. فإن الله سبحانه جعل العز لمن أطاعه والذل لمن عصاه.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

أي من كان يطلب العِزة فليطلبها بطاعة الله: بالكلم الطيب، والعمل الصالح.

وقال بعض السلف: الناس يطلبون العز بأبواب ملوك، ولا يجدونه إلا في طاعة الله.

وقال الحسن: وإن هَمْلَجتْ بهم البَراذين، وَطَقْطَقَتْ بهم البغال؛ إنَّ ذل المعصية لفي قلوبهم، أبى الله عز وجل إلا أن يُذِلَّ من عصاه، وذلك أن

من أطاع الله فقد والاه. ولا يذل من والاه ربه، كما في دعاء القنوت: «إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت».

[زكاة القلب موقوفة على طهارته]:

والمقصود: أن زكاة القلب موقوفة على طهارته، كما أن زكاة البدن موقوفة على استفراغه من أخلاطه الرديئة الفاسدة.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

ذكر ذلك سبحانه عقيب تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية، فدل على أن التزكي هو باجتناب ذلك.

وكذلك قوله تعالى في الاستئذان على أهل البيوت: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨].

فإنهم إذا أُمروا بالرجوع لئلا يَطَّلعوا على عورة لم يحب صاحب المنزل أن يُطَّلَع عليها كان ذلك أزكى لهم، كما أن ردَّ البصر وغَضَّه أزكى لصاحبه.

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤ـ١٥].

وقال تعالى عن موسى في خطابه لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ؟﴾ [النازعات: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦ـ٧].

قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد: شهادة أن لا إلـه إلا الله، والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلـهية

ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارته، وإثبات إلـهيته سبحانه، وهو أصل كل زكاة ونماء، فإن التزكي ـ وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة ـ فإنه إنما يحصل بإزالة الشر. فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعاً.

فأصل ما تزكو به القلب والأرواح: هو التوحيد.

[الفرق بين تزكية النفس وبين الإخبار عن ذلك]:

والتزكية جعل الشيء زكياً.

إما في ذاته وإما في الاعتقاد والخبر عنه.

كما يقال: عَدَّلته وفَسَّقته، إذا جعلته كذلك في الخارج، أو في الاعتقاد والخبر.

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، هو على غير معنى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، أي لاتخبروا بزكاتها، وتقولوا: نحن زاكون صالحون مُتَّقون، ولهذا قال عقيب ذلك: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

وكان اسم (زينب) (بَرَّة)؛ فقال: (تزكي نفسها)، فسماها رسول الله ﷺ (زينب) وقال: «الله أعلم بأهل البر منكم»[1].

وكذلك قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ [النساء: ٤٩]، أي يعتقدون زكاءها ويخبرون به، كما يزكي المزكي الشاهد، فيقول عن نفسه مايقول المزكي فيه، ثم قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٩] أي هو الذي يجعله زاكياً، ويخبر بزكاته.

وهذا بخلاف قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، فإنه من باب

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٤١، ٢١٤٢).

قوله: ﴿هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ؟﴾ [النازعات: ١٨]، أي تعمل بطاعة الله، فتصير زاكياً، ومثله قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤].

[معنى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾][1]:

وقد اختلف في الضمير المرفوع في قوله: (زكاها) فقيل: هو لله. أي أفلحت نفس زكاها الله، وخابت نفس دسَّاها، وقيل: إن الضمير يعود على فاعل (أفلح) وهو (مَنْ) سواء كانت موصولة أو موصوفة، فإن الضمير لو عاد على الله سبحانه لقال: قد أفلح من زكاه وقد خاب من دسّاه.

والأولون يقولون (من) وإن كان لفظها مذكراً فإذا وقعت على مؤنث جاز إعادة الضمير عليها بلفظ المؤنث، مراعاة للمعنى، وبلفظ المذكر مراعاة للفظ، وكلاهما من الكلام الفصيح، وقد وقع في القرآن اعتبار لفظها ومعناها، فالأول كقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، فأفرد الضمير، والثاني كقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٢].

قال المرجحون للقول الأول: يدل على صحة قولنا: ما رواه أهل (السنن) من حديث ابن أبي مُليكة عن عائشة قالت: أتيت ليلة، فوجدت رسول الله ﷺ يقول: (ربِّ أعطِ نفسي تقواها، وزكِّها، أنت خير من زكَّاها، أنت وليّها ومولاها)[2]، فهذا الدعاء كالتفسير لهذه الآية، وأن الله تعالى هو الذي يزكي النفوس فتصير زاكية، فالله هو المزكى، والعبد هو المتزكى. والفرق بينهما فرق ما بين الفاعل والمطاوع قالوا: والذي جاء في القرآن من إضافة الزكاة إلى العبد إنما هو بالمعنى الثاني، دون الأول. كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤]، وقوله: ﴿هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ؟﴾ [النازعات ١٨] أي تقبل تزكية الله تعالى لك، فتزكَّى؟.

---

(١) هذه الفقرة استطراد دعا إليه شرح الآية الكريمة.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٧٢٢).

قالوا: وهذا هو الحق. فإنـه لا يفلح إلا من زكّاه الله، قالـوا: وهذا اختيار ترجمان القرآن ابن عباس، فإنه قال في رواية ابن أبي طَلحة وعطاء والكلبي: قد أفلح من زكى الله نفسه.

وقال ابن زيد: قد أفلح من زكى الله نفسه، واختاره ابن جرير.

قالوا: ويشهد لهذا القول أيضاً قوله في أول السورة: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨].

قالوا: وأيضاً فإنه سبحانه أخبر أنه خالق النفس وصفاتها وذلك هو معنى التسوية.

قال أصحاب القول الآخر:[١] ظاهر الكلام ونظمه الصحيح: يقتضي أن يعود الضمير على (من) أي أفلح من زكى نفسه. هذا هو المفهوم المتبادر إلى الفهم، بل لايكاد يفهم غيره، كما إذا قلت: هذه جاريـة قد ربح من اشتراها. وصلاة قد سعد من صلاها. وضالَّة قد خاب من آواها. ونظائر ذلك.

قالوا: والنفس مؤنثة، فلو عاد الضمير على الله سبحانه لكان وجه الكلام: قد أفلحت نفس زكاها، أو أفلحت من زكاها، لوقوع (مَن) على النفس.

قالوا: وإن جاز تفريغ الفعل من التاء لأجل لفظ (مَن) كما يقول: قد أفلح من قامت منكن، فذاك حيث لا يقع اشتباه والتباس، فإذا وقع الاشتباه لم يكن بدٌّ من ذكر ما يزيله.

قالوا: و(مَن) بمعنى الذي. ولو قيل: قد أفلح الذي زكاها الله لم يكن

---

(١) هم القائلون بعود ضمير (زكاها) إلى العبد.

جائزاً، لعود الضمير المؤنث على الذي. وهو مذكر.

قالوا: وهو سبحانه قصد نسبة الفلاح إلى صاحب النفس إذا زكى نفسه. ولهذا فرغ الفعل من التاء، وأتى بـ(مَن) التي هي بمعنى الذي، وهذا الذي عليه جمهور المفسرين، حتى أصحاب ابن عباس.

وقال قتادة: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ مَنْ عمل خيراً زكاها بطاعة الله عزَّ وجلّ، وقال أيضاً: قد أفلح من زكى نفسه فأصلحها وحملها على طاعة الله، وقد خاب من أهلكها وحملها على معصية الله.

قال ابن قُتيبة: يريد أفلح من زكى نفسه، أي نماها وأعلاها بالطاعة والبِرِّ والصدقة، واصطناع المعروف: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ أي نقصها وأخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصي.

والفاجر أبداً خفي المكان، عديم المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس. فمرتكب الفواحش قد دس نفسه وقمعها، ومصطنع المعروف قد شهر نفسه ورفعها.

وكانت أجواد العرب تنزل الرُّبَى ويَفَاعَ الأرض[1] لتشهر أماكنها للمُعْتفين[2] وتوقد النار في الليل للطارقين. وكانت اللئام تنزل الأوْلاج والأطراف والأهضام[3] لتخفي أماكنها على الطالبين، فأولئك أعلوا أنفسهم وزكوها، وهؤلاء أخفوا أنفسهم ودسوها. وأنشد:

وبــوَّابُ بيتِــك فــي مَعْلــمٍ ... رحيــبِ المبــاءة والمســرحِ
كفيــتَ العُفــاة طِــلاب القِــرى ... ونبــحَ الكــلاب لمستنبــحِ

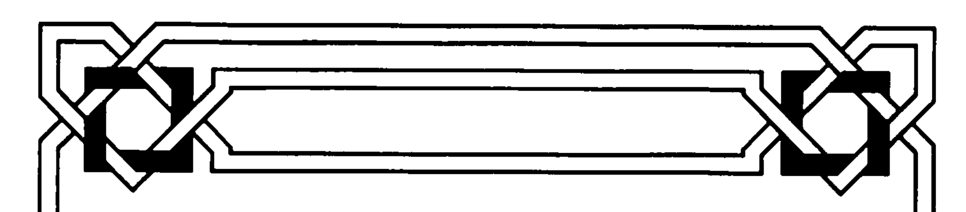
(١) أي مرتفعاتها.
(٢) العافي والمعتفي: كل طالب رزق من إنسان وغيره.
(٣) المراد: المنخفض من الأرض.

فهذان قولان مشهوران في الآية.

وفيها قول ثالث: أن المعنى: خاب من دس نفسه مع الصالحين وليس منهم، حكاه الواحدي، قال: ومعنى هذا: أنه أخفى نفسه في الصالحين، يُرِي الناس أنه منهم وهو منطوٍ على غير ما ينطوي عليه الصالحون.

وهذا ـ وإن كان حقاً في نفسه ـ لكن كونه هو المراد بالآية نظر، وإنما يدخل في الآية بطريق العموم. فإن الذي يدس نفسه بالفجور إذا خالط أهل الخير دس نفسه فيهم. والله تعالى أعلم.

* * *



الباب الحادي عشر

ما فيه سعادة القلب

«وأنه لا سعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح إلا بأن يكون الله هو إلٰهه وفاطره وحده، وهو معبوده وغاية مطلوبه، وأحب إليه من كل ما سواه»

الفصل الأول

السعادة والتصور الكلي للنفع والضر

[التصور الكلي للنفع والضر]:

معلوم أن كل حي ـ سوى الله سبحانه وتعالى ـ: من ملك أو إنس أو جن أو حيوان، فهو فقير إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، ولا يتم ذلك له إلا بتصور للنافع والضار، والمنفعةُ من جنس النعيم واللذة، والمضرةُ من جنس الألم والعذاب.

ولا بدَّ له من أمرين:

أحدهما: معرفة ما هو المحبوب المطلوب الذي ينتفع به، ويلتذ بإدراكه.

والثاني: المعين الموصل المحصل لذلك المقصود.

وبإزاء ذلك أمران آخران:

أحدهما: مكروه بغيض ضار.

والثاني: معين دافع له عنه.

فهذه أربعة أشياء:

أحدها: أمر هو محبوب مطلوب الوجود.

الثاني: أمر مكروه مطلوب العدم.

الثالث: الوسيلة إلى حصول المطلوب المحبوب.

الرابع: الوسيلة إلى دفع المكروه.

فهذه الأمـور الأربعة ضرورية للعبد، بل ولكل حيـوان، لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها.

[ارتباط ذلك بالله تعالى]:

فإذا تقرر ذلك، فالله سبحانه وتعالى هو الذي يجب أن يكون هو المقصـودَ المدعوَّ المطلوب، الذي يـراد وجهه، ويبتغى قُرْبه، ويُطلب رضاه، وهو المعين على حصول ذلك.

وعبودية ما سواه والالتفات إليه، والتعلق به هو الضار المكروه.

والله هو المعين على دفعه، فهو سبحانه وتعالى الجامع لهذه الأمور الأربعة دون ما سواه.

فهو المعبود المحبوب المراد.

وهو المعين لعبده على وصوله إليه وعبادته له.

والمكروه البغيض إنما يكون بمشيئته وقدرته.

وهو المعين لعبده على دفعه عنه.

كما قال أعرف الخلق به عليه الصلاة والسلام: (أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك)[1].

وقال ﷺ: (اللهم إني أسلمتُ نفسي إليك، ووَجَّهتُ وَجْهـي إليك، وفَوّضت أمري إليك، وألجأتُ ظَهْري إليك، رَغبةً ورهبةً إليك، لامَلْجأ ولا مَنْجَى منك إلا إليك)[2].

---

(١) أخرجه مسلم: (٤٨٦).

(٢) متفق عليه (خ٦٣١٣، م٢٧١٠).

فمنه تعالى المنجَى، وإليه الملجأ، وبه الاستعاذة من شر ما هو كائن بمشيئته وقدرته، فالإعاذة فعله، والمستعاذ منه فعله، أو مفعوله الذي خلقه بمشيئته.

فالأمر كله له، والحمد كله له، والملك كله له، والخير كله في يديه، لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه كل أحد من خلقه.

[سعادة العبد في ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾]:

ولهذا كان صلاح العبد وسعادته في تحقيق ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب والمستعان، هو الذي يستعان به على المطلوب.

فالأول: معنى ألوهيته.

والثاني: من معنى ربوبيته.

فإن الإله هو الذي تألهُهُ القلوب: محبةً، وإنابةً، وإجلالاً، وإكراماً، وتعظيماً، وذُلاً، وخضوعاً، وخوفاً، ورجاء، وتوكلاً.

والرب هو الذي يُرَبِّي عبده، فيعطيه خلقه، ثم يهديه إلى مصالحه. فلا إله إلا هو، ولا رب إلا هو.

فكما أن ربوبية ما سواه أبطل الباطل، فكذلك إلهية ما سواه.

[آيات كريمة تجمع أصلي التوحيد]:

وقد جمع سبحانه بين هذين الأصلين[١] في مواضع من كتابه.

---

(١) أي معنى الألوهية ومعنى الربوبية.

كقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

وقوله عن نبيه شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨].

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾[الفرقان ٥٨].

وقوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٨ـ٩].

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

وقوله عن الحنفاء أتباع إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

فهذه سبعة مواضع[١] ينتظم هذين الأصلين الجامعين لمعنيي التوحيد اللذين لا سعادة للعبد بدونهما ألبتة.

* * *

---

(١) ذكر المصنف ستة مواضع والسابع ما سبق ذكره في الفقرة السابقة من قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

الفصل الثاني

الشوق في الدنيا والنظر في الآخرة

[اجتماع الشوق والنظر]:

الوجه الثاني[1]: أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق لعبادته، الجامعة لمعرفته، والإنابة إليه ومحبته، والإخلاص له.

فبذكره تطمئن قلوبهم، وتسكن نفوسهم.

وبرؤيته في الآخرة تَقَرُّ عيونهم، ويتم نعيمهم، فلا يعطيهم في الآخرة شيئاً هو أحب إليهم، ولا أقر لعيونهم، ولا أنعم لقلوبهم: من النظر إليه، وسماع كلامه منه بلا واسطة.

ولم يعطهم في الدنيا شيئاً خيراً لهم، ولا أحب إليهم، ولا أقر لعيونهم من الإيمان به، ومحبته والشوق إلى لقائه، والأنس بقربه، والتنعم بذكره.

وقد جمع النبي ﷺ بين هذين الأمرين في الدعاء الذي رواه النسائي والإمام أحمد، وابن حِبَّان في (صحيحه) وغيرهم، من حديث عَمَّار بن ياسِر: أن رسول الله ﷺ كان يدعو به.

(اللهمَّ بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمتَ الحياة خيراً لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاةُ خيراً لي، وأسألك خشيتك في الغيب

---

(١) أي من الوجوه التي تؤمن سعادة العبد، وهو هنا الشوق إلى لقاء الله تعالى، والنظر إليه تعالى في الآخرة.
وكان المؤلف قد ذكر الوجه الأول في الفصل السابق، وهو اجتماع أصلي التوحيد.

والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا يَنفَدُ، وأسألك قُرَّةَ عينٍ لاتنقطع، وأسألك الرضى بعد القضاء، وأسألك بَرْد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك، في غير ضَرَّاء مُضِرَّة، ولا فتنة مُضِلَّة، اللهمَّ زيِّنا بزينة الإيمان، واجعلنا هُداة مهتدين)[1].

فجمع في هذا الدعاء العظيم القدر بين أطيب شيء في الدنيا، وهو الشوق إلى لقائه سبحانه، وأطيب شيء في الآخرة، وهو النظر إلى وجهه سبحانه.

ولما كان كمال ذلك وتمامه موقوفاً على عدم ما يضر في الدنيا، ويفتن في الدين، قال: «في غير ضَرَّاء مُضِرَّة ولا فتنة مُضِلَّلة».

ولما كان كمال العبد في أن يكون عالماً بالحق، متبعاً له، معلماً لغيره، مرشداً له قال: «وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ».

ولما كان الرضى النافع المحصل للمقصود هو الرضى بعد وقوع القضاء لا قبله، فإن ذلك عزم على الرضى، فإذا وقع القضاء انفسخ ذلك العزم، سأل الرضى بعده.

فإن المقدور يكتنفه أمران:

الاستخارة قبل وقوعه.

والرضى بعد وقوعه.

فمن سعادة العبد أن يجمع بينهما، كما في (المسند) وغيره عنه ﷺ: (إن من سعادة ابن آدم استخارة الله. ورضاه بما قضى الله، وإن شقاوة ابن

---

(١) أخرجه النسائي برقم (١٣٠٤، ١٣٠٥).

آدم ترك استخارة الله، وسخطه بما قضى الله)[1].

ولما كانت خشية الله رأس كل خير في المشهد والمغيب، سأله خشيته في الغيب والشهادة.

ولما كان أكثر الناس إنما يتكلم بالحق في رضاه، فإذا غضب أخرجه غضبه إلى الباطل، وقد يدخله أيضاً رضاه في الباطل، سأل الله عزّ وجل أن يوفقه لكلمة الحق في الغضب والرضى، ولهذا قال بعض السلف: لا تكن ممن إذا رضي أدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب أخرجه غضبه من الحق.

ولما كان الفقر والغنى محنتين وبليتين، يبتلي الله بهما عبده. ففي الغنى يبسط يده، وفي الفقر يقبضها، سأل الله عز وجل القصد في الحالين، وهو التوسط الذي ليس معه إسراف ولا تقتير.

ولما كان النعيم نوعين: نوعاً للبدن، ونوعاً للقلب، وهو قرة العين، وكماله بدوامه واستمراره، جمع بينهما في قوله: «أسألك نعيماً لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع».

ولما كانت الزينة زينتين: زينة البدن، وزينة القلب، وكان القلب أعظمهما قدراً، وأجلّهما خطراً، وإذا حصلت زينة البدن على أكمل الوجوه في العُقْبَى، سأل ربه الزينة الباطنة فقال: «زينا بزينة الإيمان».

ولما كان العيش في هذه الدار لا يبرد لأحد كائناً من كان، بل هو محشو بالغصص والنكد، ومحفوف بالآلام الباطنة والظاهرة، سأل «برد العيش بعد الموت».

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢١٥١) وقال: هذا حديث غريب لانعرفه إلا من حديث محمد بن أبي حميد، ويقال له أيضاً: حماد بن أبي حميد، وهو أبو إبراهيم المدني وليس هو بالقوي عند أهل الحديث؛ وضعف الألباني الحديث.

[توحيد الربوبية غير كاف][1]:

والمقصود: أنه جمع في هذا الدعاء بين أطيب ما في الدنيا، وأطيب ما في الآخرة.

فإن حاجة العباد إلى ربهم في عبادتهم إياه وتأليههم له، كحاجتهم إليه في خلقه لهم، ورزقه إياهم، ومعافاة أبدانهم، وستر عوراتهم، وأمن روعاتهم، بل حاجتهم إلى تـأليهه ومحبته وعبوديتـه أعظم، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم، ولا صلاح لهم ولا نعيم ولا فلاح ولا لذة ولا سعادة بدون ذلك بحال.

ولهذا كانت «لا إلـه إلا الله» أحسن الحسنات، وكان توحيد الإلـهية رأس الأمر.

وأما توحيد الربوبية الذي أقر به المسلم والكافر، وقرره أهل الكلام في كتبهم، فلا يكفي وحده، بل هو الحجة عليهم، كما بين ذلك سبحانه في كتابه في عدة مواضع.

ولهذا كان حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، كما في الحديث الصحيح الذي رواه معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال:

(أتدري ما حق الله على عباده؟) قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (حقه على عبـاده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟) قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (حقهم عليه أن لا يعذبهم بالنار)[2].

ولذلك يحب سبحانه عباده المؤمنين الموحدين ويفرح بتوبتهم، كما

---

(١) أي لابد من اجتماع توحيد الألوهية مع توحيد الربوبية.
(٢) متفق عليه (خ٢٨٥٦، م٣٠).

أن في ذلك أعظم لذة العبد وسعادته ونعيمه، فليس في الكائنات شيء غير الله سبحانه يسكن القلب إليه، ويطمئن به ويأنس به، ويتنعم بالتوجه إليه.

ومن عبد غيره سبحانه وحصل له به نوع منفعة ولذة، فمضرته بذلك أضعاف أضعاف منفعته، وهو بمنزلة أكل الطعام المسموم اللذيذ.

وكما أن السماوات والأرض لو كان فيهما آلهة غيره سبحانه لفسدتا، كما قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فكذلك القلب إذا كان فيه معبود غير الله فسد فساداً لا يرجى صلاحه إلا بأن يخرج ذلك المعبود من قلبه، ويكون الله وحده إلـٰهه ومعبوده الذي يحبه ويرجوه، ويخافه ويتوكل عليه وينيب إليه.

* * *

الفصل الثالث

فقر العبد إلى عبادة الله

[حاجة العبد إلى العبادة]:

الوجه الثالث[1]: أنَّ فقر العبد إلى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً ليس له نظير فيقاس به، لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الغذاء والشراب والنفَس، فيقاس بها، لكن بينهما فروق كثيرة.

فإن حقيقة العبد: قلبه وروحه، ولا صلاح له إلا بإلـٰهه الحق، الذي لا إلـٰه إلا هو، فلا يطمئن إلا بذكره، ولا يسكن إلا بمعرفته وحبه، وهو كادح إليه كَدْحاً فملاقيه، ولابد له من لقائه، ولا صلاح له إلا بتوحيد محبته وعبادته وخوفه ورجائه، ولو حصل له من اللذات والسرور بغيره ما حصل فلا يدوم له ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، وينعم بهذا في حال وبهذا في حال، وكثيراً ما يكون ذلك الذي يتنعم به هو أعظم أسباب ألمه ومضرته.

وأما إلـٰهه الحق فلابد له منه في كل وقت وفي كل حال، وأينما كان فنفس الإيمان به ومحبته وعبادته وإجلاله وذكره هو غذاء الإنسان وقوته، وصلاحه وقوامه، كما عليه أهل الإيمان، ودلت عليه السنة والقرآن، وشهدت به الفطرة والجنان.

---

(١) أي من وجوه سعادة العبد التي هي موضوع الباب.

[ليست العبادة تكليفاً]:

لا كما يقولـه من قل نصيبه من التحقيق والعرفان، وبُخس حظه من الإحسان: إن عبادته وذكره وشكره تكليف ومشقة.

ـ لمجرد الابتلاء والامتحان.

ـ أو لأجل مجرد التعويض بالثواب المنفصل كالمعاوضة بالإيمان.

ـ أو لمجرد ريـاضة النفس وتهذيبها ليرتفع عن درجـة البهيم مـن الحيوان.

كما هي مقالات من بُخس حظه من معرفة الرحمن، وقلَّ نصيبـه من ذوق حقائق الإيمان، وفرح بما عنده من زَبَد الأفكار وزُبالة الأذهان.

بل عبادته ومعرفته وتوحيده وشكره قرة عين الإنسان، وأفضل لذة للروح والقلب والجنان، وأطيب نعيم ناله من كان أهلاً لهذا الشأن.

والله المستعان، وعليه التكلان.

وليس المقصود بالعبادات والأوامر المشقة والكلفة بالقصد الأول، وإن وقع ذلك ضمناً وتبعاً في بعضها، لأسباب اقتضته لابد منها، إذ هي من لوازم هذه النشأة.

[العبادة قرة للعيون وشفاء للصدور]:

فأوامره سبحانه، وحقه الذي أوجبه على عباده، وشرائعه التي شرعها لهم، هي قـرة العيون ولذة القلـوب، ونعيم الأرواح وسـرورها، وبها سعادتها وفلاحها، وكمالها في معاشها ومعادها، بل لا سرور لها ولا فرح ولا لذة ولا نعيم في الحقيقة إلا بذلك، كما قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى

وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧ ـ ٥٨].

قال أبو سعيد الخدري: فضل الله: القرآنُ، ورحمته: أن جعلكم من أهله.

وقال هلال بن يِساف[1]: بالإسلام الذي هداكم إليه. وبالقرآن الذي علمكم إياه، هو خير مما تجمعون من الذهب والفضة.

وكذلك قال ابن عباس والحسن وقتادة: فضله: الإسلام، ورحمته: القرآن.

وقالت طائفة من السلف: فضله القرآن، ورحمته الإسلام.

والتحقيق: أن كلاً منهما فيه الوصفان، الفضل والرحمة، وهما الأمران اللذان امتنَّ بهما الله على رسوله فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، والله سبحانه إنما رفع مَنْ رفع بالكتاب والإيمان. ووضع من وضع بعدمهما.

[اعتراض وجواب]:

فإن قيل: فقد وقع تسمية ذلك تكليفاً في القرآن؛ كقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

قيل: نعم، إنما جاء ذلك في جانب النفي، ولم يسمِّ سبحانه أوامره ووصاياه وشرائعه تكليفاً قط، بل سمَّاها روحاً ونوراً، وشفاء وهدى ورحمة، وحياة، وعهداً، ووصية، ونحو ذلك.

* * *

الفصل الرابع

لذة النظر إلى وجهه تعالى يوم القيامة

[أعظم النعيم لذة النظر في الآخرة]:

الوجه الرابع[1]: أن أفضل نعيم الآخرة وأجَلّه وأعلاه على الإطلاق هو النظر إلى وجه الرب جلّ جلاله، وسماع خطابه.

كما في (صحيح مسلم) عن صُهيّب عن النبي ﷺ (إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله مَوعداً يريد أن يُنْجِزَكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا؛ ويدخلنا الجنة، ويُجرْنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه)[2].

وفي حديث آخر (فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه)[3].

فبيَّن النبي ﷺ أنهم مع كمال تنعمهم بما أعطاهم ربهم في الجنة، لم يعطهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، وإنما كان ذلك أحب إليهم لأن ما يحصل لهم به من اللذة والنعيم والفرح والسرور وقرة العين، فوق ما يحصل لهم من التمتع بالأكل والشرب والحور العين، ولا نسبة بين اللذتين والنعيمين ألبتة.

---

(١) أي من وجوه سعادة العبد التي هو موضوع الباب.

(٢) أخرجه مسلم (١٨١).

(٣) أخرجه ابن ماجه برقم (١٨٤)؛ وضعفه الألباني.

ولهذا قال سبحانه في حق الكفار:

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥ـ١٦].

فجمع عليهم نوعي العذاب: عذاب النار، وعذاب الحجاب عنه سبحانه، كما جمع لأوليائه نوعي النعيم: نعيم التمتع بما في الجنة، ونعيم التمتع برؤيته.

وذكر سبحانه هذه الأنواع الأربعة في هذه السورة، فقال في حق الأبرار:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٢ـ٢٣].

ولقد هضم معنى الآية من قال: ينظرون إلى أعدائهم يعذبون، أو ينظرون إلى قصورهم وبساتينهم، أو ينظر بعضهم إلى بعض، وكل هذا عدول عن المقصود إلى غيره، وإنما المعنى ينظرون إلى وجه ربهم.

ضد حال الكفار الذين هم عن ربهم محجوبون ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٦].

وتأمل كيف قابل سبحانه ما قاله الكفار في أعدائهم في الدنيا، وسخروا به منهم، بضده في القيامة، فإن الكفار كانوا إذا مر بهم المؤمنون يتغامزون ويضحكون منهم ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢]، قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤] مقابلة لتغامزهم بهم وضحكهم منهم.

ثم قال: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٥] فأطلق النظر، ولم يقيده بمنظور دون منظور، وأعلى ما نظروا إليه وأجلّه وأعظمه هو الله سبحانه، والنظر إليه أجل أنواع النظر وأفضلها، وهو أعلى مراتب الهداية،

فقابل بذلك قولهم : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ [المطففين : ٣٢] .

فالنظر إلى الرب سبحانه مراد من هذين النوعين ولا بد ، إما بخصوصه وإما بالعموم والإطلاق ، ومن تأمل السياق لم يجد النوعين يحتملان غير إرادة ذلك ، خصوصاً أو عموماً .

[لذة النظر تابعة للمعرفة]:

وكما أنه لا نسبة لنعيم ما في الجنة إلى نعيم النظر إلى وجهه الأعلى سبحانه ، فلا نسبة لنعيم الدنيا إلى نعيم محبته ومعرفته والشوق إليه والأمن به ، بل لذة النظر إليه سبحانه تابعة لمعرفتهم به ، ومحبتهم له ، فإن اللذة تتبع الشعور والمحبة . فكلما كان المحب أعرف بالمحبوب ، وأشد محبة له ، كان التذاذه بقربه ورؤيته ووصوله إليه أعظم .

* * *

الفصل الخامس

النصر والرزق بيد الله تعالى

الوجه الخامس[1]: إن المخلوق ليس عنده نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل، بل الله وحده هو الملك، الذي له ملك ذلك كله.

قال الله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس١٠٧].

وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وقال تعالى عن صاحب يس: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ؟﴾ [فاطر: ٣].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى

---

(١) أي من وجوه سعادة العبد.

غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الملك: ٢٠ـ٢١].

فجمع سبحانه بين النصر والرزق، فإن العبد مضطر إلى من يدفع عنه عدوه بنصره، ويجلب له منافعه برزْقه، فلابد له من ناصر ورازق. والله وحده هو الذي ينصر ويرزق، فهو الرزاق ذو القوة المتين.

ومن كمال فطنة العبد ومعرفته: أن يعلم أنه إذا مسه الله بسوء لم يرفعه عنه غيره. وإذا ناله بنعمة لم يرزقه إياها سواه.

ويذكر أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه «أدرك لي. لطيف الفِطنة، وخفيَّ اللطف، فإني أحب ذلك، قال: يا رب وما لطف الفطنة؟ قال: إن وقعت عليك ذبابة فاعلم أني أنا أوقعتها فاسألني أرفعها. قال: وما خفي اللطف؟ قال: إذا أتتك حَبَّة فاعلم أني أنا ذكرتك بها».

وقد قال تعالى عن السحرة: ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فهو سبحانه وحده الذي يكفي عبده وينصره ويرزقه ويَكْلؤه.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا عمران قال: سمعت وَهْباً يقول: قال الله عزَّ وجلّ في بعض كتبه: «بعزتي، إنه من اعتصم بي، فإن كادته السماوات بمن فيهن، والأرضون بمن فيهن، فإني أجعل له من ذلك مخرجاً، ومن لم يعتصم بي، فإني أقطع يديه من أسباب السماء، وأخسف به من تحت قدميه الأرض، فأجعله في الهواء، ثم أكِلُه إلى نفسه، كفَّاي لعبدي مَلّاي، إذا كان عبدي في طاعتي أعطيه قبل أن يسألني، وأستجيب له قبل أن يدعوني، فأنا أعلم بحاجته التي ترفُق به منه».

قال أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا أبو سعيد المؤدب، حدثنا من سمع عطاء الخراساني قال: «لقيت وهب بن مُنَبِّه؛ وهو يطوف

بالبيت؛ فقلت له: حدثني حديثاً أحفظه عنك في مقامي هذا، وأوجزْ، قال: نعم، أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود: يا داود!! أما وعزتي وعظمتي لايعتصم بي عبد من عبيدي دون خلقي ـ أعرف ذلك من نيّته ـ فتكيده السماوات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهم إلا جعلت له من بينهن مخرجاً، وأما وعزتي وعظمتي لا يعتصم عبد من عبادي بمخلوق دوني ـ أعرف ذلك من نيّته ـ إلا قطعت أسباب السماء من يده، وأسَخْت الأرض من تحت قدميه، ثم لا أبالي بأي وادٍ هلك».

وهذا الوجه أظهر للعامة من الذي قبله. ولهذا خوطبوا به في القرآن أكثر من الأول ومنه دعت الرسل إلى الوجه الأول[1].

وإذا تدبر اللبيب القرآن وجد الله سبحانه يدعو عباده بهذا الوجه إلى الوجه الأول، وهذا الوجه يقتضي التوكل على الله تعالى والاستعانة به، ودعاءه ومسألته دون ما سواه، ويقتضي أيضاً: محبته وعبادته، لإحسانه إلى عبده، وإسباغ نعمه عليه، فإذا عبدوه وأحبوه وتوكلوا عليه من هذا الوجه دخلوا منه إلى الوجه الأول.

ونظير ذلك: من ينزل به بلاء عظيم، أو فاقة شديدة، أو خوف مقلق، فجعل يدعو الله سبحانه ويتضرع إليه، حتى فتح له من لذيذ مناجاته وعظيم الإيمان به، والإنابة إليه ما هو أحب إليه من تلك الحاجة التي قصدها أوّلاً، ولكنه لم يكن يعرف ذلك أوّلاً حتى يطلبه، ويشتاق إليه، وفي نحو ذلك قال القائل.

جَزَىٰ اللهُ يَوْمَ الرَّوعِ خَيْراً، فإنَّهُ ... أرانا علىٰ عِلاَّتِه أُمَّ ثابِتِ
أَرانا مَصُونَاتِ الحِجَالِ، وَلَمْ نَكُنْ ... نَراهُنَّ إلاَّ عِنْدَ نَعْتِ النَّوَاعِتِ

* * *

---

(١) هو ما جاء في الفصل الأول من هذا الباب، وهو التعرف على الله تعالى بألوهيته وربوبيته، سبحانه وتعالى.

الفصل السادس

التعلق بغير الله تعالى ضرر في الدارين

[ضرر التعلق بما سوى الله]:

الوجه السادس(١): أن تعلق العبد بما سوى الله تعالى مَضَرة عليه، إذا أخذ منه فوق القدر الزائد على حاجته، غير مستعين به على طاعة الله.

فإذا نال من الطعام والشراب والنكاح واللباس فوق حاجته ضره ذلك.

ولو أحب سوى الله ما أحب، فلابد أن يُسْلَبَهُ ويفارقه، فإن أحبه لغير الله فلابد أن تضره محبته، ويعذَّب بمحبوبه، إما في الدنيا وإما في الآخرة، والغالب أنه يعذب به في الدارين.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤ـ٣٥].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥](٢).

---

(١) أي من وجوه سعادة العبد كماسبق.

(٢) استطرد هنا المؤلف ليشرح جانباً من هذه الآية فقال: =

. . . .

= ولم يصب من قال: إن الآية على التقديم والتأخير، كالجرجاني، حيث قال: ينتظم قوله: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بعد فصل آخر ليس بموضعه، على تأويل «فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة»، وهذا القول يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما. وهو منقطع، واختاره قتادة وجماعة.

وكأنهم لما أشكل عليهم وجه تعذيبهم بالأموال والأولاد في الدنيا، وأن سرورهم ولذتهم ونعيمهم بذلك، فروا إلى التقديم والتأخير.

وأما الذين رأوا أن الآية على وجهها ونظمها فاختلفوا في هذا التعذيب، فقال الحسن البصري: يعذبهم بأخذ الزكاة منها، والإنفاق في الجهاد، واختاره ابن جرير، وأوضحه فقال: العذاب بها إلزامهم بما أوجب الله عليهم فيها من حقوقه وفرائضه، إذ كان يؤخذ منه ذلك، وهو غير طيب النفس، ولا راج من الله جزاء، ولا من الآخذ منه حمداً ولا شكراً، بل على صغر منه وكره.

وهذا أيضاً عدول عن المراد بتعذيبهم في الدنيا بها، وذهاب عن مقصود الآية.

وقالت طائفة: تعذيبهم بها أنهم يتعرضون بكفرهم لغنيمة أموالهم، وسَبْي أولادهم، فإن هذا حكم الكافر، وهم في الباطن كذلك. وهذا أيضاً من جنس ما قبله، فإن الله سبحانه أقر المنافقين، وعصم أموالهم وأولادهم بالإسلام الظاهر، وتولَّى سرائرهم، فلو كان المراد ما ذكره هؤلاء لوقع مراده سبحانه: من غنيمة أموالهم، وسبي أولادهم، فإن الإرادة ههنا كونيَّة بمعنى المشيئة، وما شاء الله كان ولابد، وما لم يشأ لم يكن.

فالصواب، والله أعلم، أن يقال: تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلَّاب الدنيا ومحبيها ومؤثريها على الآخرة: بالحرص على تحصيلها، والتعب العظيم في جمعها، ومقاساة أنواع المشاق في ذلك، فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبرُ همِّه، وهو حريص بجهده على تحصيلها.

والعذاب هنا هو الألم والمشقة والتعب، كقوله ﷺ: «السفر قطعة من العذاب»، وقوله: «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه» أي يتألم ويتوجع، لا أنه يعاقب بأعمالهم، وهكذا مَنِ الدنيا كلُّ همه أو أكبر همه، كما قال ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره من حديث أنس: «من كانت الآخرة هَمه جعل الله غِناه في قلبه، وجمع له شَمْله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه، جعل الله فقره بين عينيه، وفَرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له».

ومن أبلغ العذاب في الدنيا: تشتيت الشمل وتفريق القلب، وكون الفقر نُصب عيني العبد لا يفارقه، ولولا سكرة عشاق الدنيا بحبها لاستغاثوا من هذا العذاب، على أن أكثرهم لا يزال يشكو ويصرخ منه. =

[ضرر التعلق بالدنيا]:

ومحب الدنيا لا ينفك من ثلاث: هَمٌّ لازم، وتعب دائم، وحسرة لاتنقضي.

وذلك أن محبها لا ينال منها شيئاً إلا طمحت نفسه إلى ما فوقه؛ كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثاً)[1].

وقد مثل عيسى ابن مريم عليه السلام محب الدنيا بشارب الخمر، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً.

وذكر ابن أبي الدنيا أن الحسن كتب إلى عمر بن عبد العزيز: «أما بعد: فإن الدنيا دار ظعن، ليست بدار إقامة، إنما أنزل إليها آدم عقوبة، فاحذرها يا أمير المؤمنين!! فإن الزاد منها تركها، والغنى فيها فقرها. لها في كل حين قتيل، تذل من أعزها، وتفقر من جمعها. هي كالسم يأكله من لا يعرفه، وهو حَتْفُه، فكن فيها كالمداوي جراحَه، يحتمي قليلاً، مخافة ما يكره طويلاً، ويصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء، فاحذر هذه الدار الغرَّارة، الخداعة الخيالة، التي قد تزينت بخدعها وفتنت بغرورها، وختلت بآمالها، وتشوقت لخطَّابها، فأصبحت كالعروس المجلوة؛ فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهي

= وفي الترمذي أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تبارك وتعالى: ابنَ آدم! تَفَرَّغْ لعبادتي أملأْ صدرك غنىً، وأسُدُّ فقرَكَ، وإن لا تفعلْ ملأتُ يديكَ شُغْلاً، وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ»، وهذا أيضاً من أنواع العذاب، وهو اشتغال القلب والبدن بتحمل أنكاد الدنيا ومحاربة أهلها إياه، ومقاساة معاداتهم؛ كما قال بعض السلف: «من أحب الدنيا فليوطن نفسه على تحمل المصائب».

(١) متفق عليه (خ٦٤٣٦، م١٠٤٨).

لأزواجها كلهم قاتلة ؛ فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته ، فاغتر وطغى ، ونسي المعاد ، فشَـغل بها لُبّه ، حتى زَلَّت عنها قدمـه ، فعظمت عليها ندامتـه ، وكبرت حسرته ، واجتمعت عليه سكرات الموت وألمه ، وحسرات الفوت ، وعاشق لم ينل منها بغيتـه ، فعاش بغُصَّته ، وذهـب بكمده ، ولم يدرك منها ما طلب ، ولم تسترح نفسه من التعب ، فخرج بغير زاد ، وقدم على غير مهاد . فكن أسرَّ ما تكون فيها أحذر ما تكون لها ، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه ، وُصِل الرخاء منها بالبلاء ، وجُعل البقاء فيها إلى فناء سرورها مشوب بالحزن ، أمانيها كاذبة ، وآمالها باطلة ، وصفوها كدر ، وعيشها نكد ، فلو كان ربها لم يخبر عنها خبراً ، ولم يضرب لها مثلاً ، لكانت قد أيقظت النائم ، ونبهت الغافل . فكيف وقد جاء من الله فيها واعظ ، وعنها زاجر ؟ فما لها عند الله قدر ولاوزن ، ولا نظر إليها منذ خلقها . ولقد عرضت على نبينا بمفاتيحها وخزائنها لاتنقصه عند الله جَناح بَعوضة ، فأبى أن يقبلها ، كره أن يحب ما أبغض خالقه ، أو يرفع ما وضع مليكه . فزواها عن الصالحين اختياراً ، وبسطها لأعدائه اغتراراً . فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها . ونسي ما صنع الله برسوله حين شد الحجر على بطنه» .

وقال الحسن أيضاً : إن قوماً أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخُشُـب . فأهينوها فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها .

وهذا باب واسع ، وأهل الدنيا وعشاقها أعلم بما يقاسونه من العذاب وأنواع الألم في طلبها .

ولما كانت هي أكبر هَمِّ من لا يؤمن بالآخرة ، ولا يرجو لقاء ربه . كان عذابه بها بحسب حرصه عليها ، وشدة اجتهاده في طلبها .

وإذا أردت أن تعرف عذاب أهلها بها فتأمل حال عاشق ، فانِ في حب معشوقه ، وكلما رامَ قرباً من معشوقه نأى عنه ، ولا يفي له ويهجره ، ويصل

عدوه. فهو مع معشوقه في أنكد عيش. يختار الموت دونه، فمعشوقه قليل الوفاء، كثير الجفاء، كثير الشركاء، سريع الاستحالة، عظيم الخيانة، كثير التلوّن، لا يأمن عاشقه معه على نفسه ولا على ماله، مع أنه لا صبر له عنه، ولا يجد عنه سبيلاً إلى سَلْوة تُريحه، ولا وصال يدوم له. فلو لم يكن لهذا العاشق عذاب إلا إرادته هذا العاجل لكفى به، فكيف إذا حيل بينه وبين لذاته كلها، وصار معذباً بنفس ما كان ملتذاً به على قدر لذته به، التي شغلته عن سعيه في طلب زاده، ومصالح معاده؟.

[من أحبَّ شيئاً ـ سوى الله ـ عذب به]:

والمقصود بيان أن من أحب شيئاً سوى الله، ولم تكن محبته له لله، ولا لكونه معيناً له على طاعة الله: عذب به في الدنيا قبل اللقاء كما قيل:

أَنْتَ القَتِيلُ بِكُلِّ مَنْ أَحْبَبْتَهُ ... فاخْتَرْ لِنَفْسِكَ فِي الْهَوىٰ مَنْ تَصْطَفِي

فإذا كان يومُ المعاد ولّى الحكَمُ العدل سبحانه كلَّ محب ما كان يحبه في الدنيا. وكان معه: إما منعماً أو معذباً. ولهذا (يمثل لصاحب المال ماله شجاعاً أقرع يأخذ بِلهْزِمَتيه يقول: أنا مالُك، أنا كنزك، ويُصَفَّح له صفائح من نار يُكْوَى بها جَبينه وجَنبه وظهره)[1].

وكذلك عاشق الصور إذا اجتمع هو ومعشوقه على غير طاعة الله جمع بينهما في النار، وعذب كل منهما بصاحبه. قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وأخبر سبحانه أن الذين توادُّوا في الدنيا على الشرك، يكفر بعضهم ببعض يوم القيامة، وَيَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٤٠٣).

فالمحب مع محبوبه دنيا وأخرى. ولهذا يقول الله تعالى يوم القيامة للخلق «أليس عدلاً مني أن أُولِّي كل رجل منكم ما كان يتولى في دار الدنيا؟».

وقال ﷺ: (المرء مع من أحب)[1].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧ـ٢٩].

وقال تعالى: ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ؟﴾ [الصافات: ٢٢ـ٢٥].

قال عمر بن الخطاب: أزواجهم: أشباههم ونظراؤهم.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير: ٧]، فقُرِنَ كل شكل إلى شكله، وجعل معه قريناً وزوجاً: البَرُّ مع البر، والفاجر مع الفاجر.

والمقصود: أن مَنْ أحب شيئاً سوى الله فالضرر حاصل له بمحبوبه: إن وجد وإن فقد، فإنه إن فقده عذب بفواته، وتألم على قوة تعلُّق قلبه به، وإن وجده كان ما يحصل له من الألم قبل حصوله، ومن النكد في حال حصوله، ومن الحسرة عليه بعد فوته: أضعاف أضعاف ما في حصوله له من اللذة:

فَمَا فِي الأرْضِ أَشْقَىٰ مِنْ مُحِبٍّ ... وَإِنْ وَجَدَ الْهَوىٰ حُلْوَ الْمَذَاقِ
تَرَاهُ بَاكِياً فِي كُلِّ حَالٍ ... مَخَافَةَ فُرْقَةٍ، أَو لاشْتِيَاقِ

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٤٠).

فَيَبْكِي إِنْ نَأَوْا، شَوْقاً إِلَيْهِم وَيَبْكِي إِنْ دَنَوْا، حَذَرَ الفِرَاقِ
فَتَسْخُنُ عَيْنُهُ عِنْدَ الفِرَاقِ وَتَسْخُنُ عَيْنُهُ عِنْدَ التَّلاقِي

وهذا أمر معلوم بالاستقراء والاعتبار والتجارب، ولهذا قال ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره: (الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلا ذكر الله وما والاه)[1].

فذِكْرُه: جميع أنواع طاعته.

فكل من كان في طاعته فهو ذاكره، وإن لم يتحرك لسانه بالذكر.

وكل من والاهُ الله فقد أحبَّه وقرَّبَهُ، فاللعنة لا تنال ذلك بوجه، وهي نائلة كل ما عداه.

[اعتماد العبد على المخلوق خذلان]:

الوجه السابع[2]: أن اعتماد العبد على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته هو ولابد، عكس ما أمّله منه، فلابد أن يخذل من الجهة التي قَدَّر أن ينصر منها، ويذم من حيث قدر أن يحمد، وهذا أيضاً كما أنه ثابت بالقرآن والسنة فهو معلوم بالاستقراء والتجارب.

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١ ـ ٨٢].

وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤ ـ ٧٥]، أي يغضبون لهم ويحاربون، كما يغضب الجندي ويحارب عن أصحابه، وهم لا يستطيعون نصرهم، بل هم كَلٌّ عليهم.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٢٢).
(٢) أي من أوجه سعادة العبد، كما سبق.

وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١] أي غير تخسير.

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء: ٢٢]، فإن المشرك يرجو بشركه النصر تارة، والحمد والثناء تارة؛ فأخبر سبحانه أن مقصوده ينعكس عليه، ويحصل له الخذلان والذم.

والمقصود: أن هذين الوجهين في المخلوق وضدهما في الخالق سبحانه.

فصلاح القلب وسعادته وفلاحه في عبادة الله والاستعانة به.

وهلاكه وشقاؤه وضرره العاجل والآجل في عبادة المخلوق والاستعانة به.

* * *

الفصل السابع
منفعة الخالق ومنفعة الخلق

[الله تعالى محسن إلى عباده غني عنهم]:

الوجه الثامن[1]: أن الله سبحانه غني كريم، عزيز رحيم. فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه، يريد به الخير، ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة بل رحمة منه وإحساناً. فهو سبحانه لم يخلق خلقه ليتكثّر بهم من قِلَّة، ولا ليتعزز بهم من ذِلّة، ولا ليرزقوه ولا لينفعوه، ولا ليدفعوا عنه.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ـ٥٨].

وقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

فهو سبحانه لا يوالي من يواليه من الذل، كما يوالي المخلوق المخلوق، وإنما يوالي أولياءه إحساناً ورحمة ومحبة لهم.

وأما العباد فإنهم كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد ﷺ: ٣٨]، فهم لفقرهم وحاجتهم إنما يُحسن بعضهم إلى بعض لحاجته إلى

---

(١) أي من وجوه سعادة العبد.

ذلك، وانتفاعه به عاجلاً أو آجلاً. ولولا تصور ذلك النفع لما أحسن إليه. فهو في الحقيقة إنما أراد الإحسان لنفسه، وجعل إحسانه إلى غيره وسيلة وطريقاً إلى حصول نفع ذلك الإحسان إليه.

فإنه إما أن يحسن إليه لتوقع جزائه في العاجل، فهو محتاج إلى ذلك الجزاء، أو معاوضة بإحسانه، أو لتوقع حمده وشكره، فهو أيضاً إنما يحسن إليه ليحصل له منه ما هو محتاج إليه من الثناء والمدح، فهو محسن إلى نفسه بإحسانه إلى الغير.

وإما أن يريد الجزاء من الله في الآخرة، فهو أيضاً محسن إلى نفسه بذلك، وإنما أخر جزاءه إلى يوم فقره وفاقته، فهو غير ملوم في هذا القصد، فإنه فقير محتاج، وفقره وحاجته أمر لازم له من لوازم ذاته، فكماله أن يحرص على ما ينفعه ولم يعجز عنه.

قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال تعالى، فيما رواه عنه رسوله: (يا عبادي!! إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني؛ يا عبادي!! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أُوَفّيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه)[1].

[المخلوق لا يقصد منفعتك]:

فالمخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول، بل إنما يقصد انتفاعه بك، والرب تعالى إنما يريد نفعك لا انْتفاعه بك، وذلك منفعة محضة لك

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٧٧).

خالصة من المضرة، بخلاف إرادة المخلوق نفعك، فإنه قد يكون فيه مضرة عليك، ولو بتحمل مِنَّته.

فتدبر هذا، فإن ملاحظته تمنعك أن ترجو المخلوق، أو تعامله دون الله أو تطلب منه نفعاً أو دفعاً، أو تعلق قلبك به، فإنه إنما يريد انتفاعه بك لا محض نفعك، وهذا حال الخلق كلهم بعضهم من بعض، وهو حال الولد مع والده، والزوج مع زوجه. والمملوك مع سيده، والشريك مع شريكه.

فالسعيد من عاملهم لله لا لهم، وأحسن إليهم لله، وخاف الله فيهم، ولم يخفهم مع الله، ورجا الله بالإحسان إليهم، ولم يرجهم مع الله، وأحبهم بحب الله، ولم يحبهم مع الله، كما قال أولياء الله عزَّ وجلّ: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾[الإنسان: ٩].

[العبد لا يعرف مصلحتك حتى ينفعك]:

الوجه التاسع: أن العبد لا يعلم مصلحتك حتى يعرفه الله إياها، ولا يقدر على تحصيلها لك، حتى يقدره الله عليها، ولا يريد ذلك حتى يخلق الله فيه إرادة ومشيئة. فعاد الأمر كله لمن ابتدأ منه؛ وهو الذي بيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، فتعلق القلب بغيره رجاء وخوفاً وتوكلاً وعبودية: ضرر محض، لا منفعة فيه، وما يحصل بذلك من المنفعة فهو وحده الذي قدرها ويسرها وأوصلها إليك.

[الخلق يريدون حاجاتهم منك]:

الوجه العاشر: أن غالب الخلق إنما يريدون قضاء حاجاتهم منك، وإن أضر ذلك بدينك ودنياك، فهم إنما غرضهم قضاء حوائجهم ولو بمضرتك، والرب تعالى إنما يريدك لك، ويريد الإحسان إليك لك لا لمنفعته، ويريد دفع الضرر عنك، فكيف تعلق أملك ورجاءك، وخوفك بغيره؟

وجماع هذا أن تعلم: (أن الخلق كلهم لو اجتمعوا كلهم على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى عليك)[1].

قال تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١].

* * *

---

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي برقم (٢٥١٦).

الفصل الثامن

خاتمة لهذا الباب

لما كان الإنسان بل وكل حي يتحرك بالإرادة، لا ينفك عن علم وإرادة وعمل بتلك الإرادة، وله مراد مطلوب، وطريق وسبب موصل إليه، مُعين عليه، وتارة يكون السبب منه، وتارة يكون من خارج منفصل عنه، وتارة منه ومن الخارج، فصار الحي مجبولاً على أن يقصد شيئاً ويريده، ويستعين بشيء ويعتمد عليه في حصول مراده.

والمراد قسمان:

أحدهما: ما هو مراد لنفسه.

والثاني: ما هو مراد لغيره.

والمستعان قسمان:

أحدهما: ما هو مستعان بنفسه.

والثاني: ما هو تبع له وآلة.

فهذه أربعة أمور: مراد لنفسه، ومراد لغيره، ومستعان بنفسه، ومستعان بكونه آلة، وتبعاً للمستعان بنفسه.

فلابد للقلب من مطلوب يطمئن إليه، وينتهي إلى محبته. ولابدّ له من شيء يتوصل إليه به ويستعين به في حصول مطلوبه.

والمستعان مدعو ومسؤول.

والعبادة والاستعانة كثيراً ما يتلازمان.

فمن اعتمد القلب عليه في رزقه ونصره ونفعه خضع له، وذل له، وانقاد له وأحبه من هذه الجهة، وإن لم يحبه لذاته، لكن قد يغلب عليه حكم الحال حتى يحبه لذاته، وينسى مقصوده منه.

وأما من أحبه القلب وأراده وقصده فقد لا يستعين به، ويستعين بغيره عليه، كمن أحب مالاً أو منصباً أو امرأة، فإن علم أن محبوبه قادر على تحصيل غرضه استعان به، فاجتمع له محبته والاستعانة به.

فالأقسام أربعة:

[الأول]: محبوب لنفسه وذاته، مستعان بنفسه. فهذا أعلى الأقسام، وليس ذلك إلا الله وحده. وكل ما سواه فإنما ينبغي أن يحب تبعاً لمحبته، ويستعان به لكونه آلة وسبباً.

الثاني: محبوب لغيره ومستعان به أيضاً، كالمحبوب الذي هو قادر على تحصيل غرض محبه.

الثالث: محبوب مستعان عليه بغيره.

الرابع: مستعان به غير محبوب في نفسه.

فإذا عرف ذلك تبين مَنْ أحقُّ هذه الأقسام الأربعة بالعبودية والاستعانة، وأن محبة غيره واستعانته به إن لم تكن وسيلة إلى محبته واستعانته، وإلا كانت مضرة على العبد، ومفسدتها أعظم من مصلحتها.

والله المستعان وعليه التكلان.

* * *

المحتوى

الموضوع **الصفحة**

الباب الثالث
ذكر حقيقة مرض القلب

الباب الرابع
الوقاية من استيلاء النفس على القلب

الباب الخامس
الوقاية من تسلّط الشيطان على القلب

الباب الثامن

أدوية أمراض القلب

الباب التاسع

طهارة القلب من أدرانه ونجاساته

الباب العاشر
زكاة القلب

الباب الحادي عشر
ما فيه سعادة القلب

* * *